أحمد القاضي

سبع ساعات

رواية



دَارْ دَوِّنْ

سبع
ساعات

الطبعة الأولى مايو ٢٠١٣
رقم الإيداع : ٢٠١٣/٧١٩١
الترقيم الدولي : ٢-١٢-٦٤٣٦-٩٧٧-٩٧٨
تصحيح لغوي : محمود الغنام
تصميم الغلاف : أحمد مراد

١٨ شارع محي الدين أبو العز - الدقي
تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

سبع ساعات

أحمد القاضي



دار دوّن للنشر والتوزيع

إهـــداء

لو أنّي كنتُ أعلمُ أنني على يديكِ..
ستبدأ حياتي مِن جديد..
لكنتُ أرَحتُ أُمّيَ مِن عناءِ ولادتي..
ومكثتُ خارج الحياة مُغيَّباً..
فلا أبدأ العُمر إلا حينَما ألقاكِ..
ولا أتنفَّس ألا عِندَ رُؤياكِ..
وأبقى بعدها بين ذراعيكِ دهراً..
أعوِّض فيه ما فاتَ مِنّي..
في غيابكِ مِن سنين.

الفصل الأول

كعادته في كُل مرَّةٍ يُسافر فيها صابِر، أخذ يُحاول قدر الإمكان أن يستمتع بِكُل لحظةٍ وبِكُل تفصيلةٍ مِن تفاصيل رحلة سفره، إنها إحدى اللحظات الوحيدة النادرة التي يشعُر فيها بأنه مُساوٍ للباقين إلى حدٍ ما، تماماً كما يتساوى معهم عند دخوله إلى المسجد، هكذا حدَّث نفسه ثُمَّ ابتسم، فهو لا يذهب إلى المسجِد إلا نادراً، وغالباً ما يلحق بصلاة الجُمعة بالكاد، إذاً فليستمتع بلحظات السفر تلك، فهي لن تتكرَّر ثانيةً إلا بعد مُضيِّ عامٍ آخر أو أكثر، حاول أن يُخفي ضحكةً خفيفةً غالبته، وسأل نفسه: هل سيبتعد عن المسجد عاماً كاملاً أيضاً؟ كتمَ ضحكته وهو يُتمتم قائلاً: رُبما، كُل شيءٍ جائِز.

يتردَّد فجأة صوتُ أذان صلاة العِشاء عبر الإذاعة الداخلية للمطار، يتذكَّر أن اليوم هو يوم الجُمعة، هكذا قالت له أُخته عندما حاولتْ أن توقظه مِن نومه، يا لها مِن صُدفة، كأن الصلوات تُطارده في كُل مكان، ابتسم مِن جديد ابتسامةً عريضةً ثُمَّ أخفاها على الفور، كان يخشى أن يراه أحدهم، فيظُن أنه أبلَه مِن فرط ضحكاته وابتساماته.

كان الجميع يتأفَّفون مِن ذلك الضابط البطيء الذي يقوم بمُراجعة بيانات جوازات السفر، وكان الطابور الذي يقف فيه المُسافرون طويلاً بحق، لكن صابِر لم يكُن يهتم بذلك، بل كان يتملَّكه بعض الزهو؛ بسبب أن الجميع يقفون مثله في ذلك الطابور اللعين، فلا توجد أفضليةٌ لأحدهم عليه، ما أحلى تفاصيل رحلة السفر، فالجميع يُعانون مثله تماماً في كُل شيء.

يعلم صابِر أن عُقدة حياته هي تلك النظرة الدونية التي ينظرونها نحوه أينما ذهب، فعمله المُتدنِّي كساعٍ، حبسه في إطارٍ دائم لم ينجح أبداً في الخروج مِنه، كان يقوم بإعداد وتقديم المشروبات للموظفين ثُمَّ تنظيف مكاتب الشركة التي يعمل بها بعد رحيلهم، يعلمون جميعاً أنهم لا يطيقون الحياة دون خدماته، ويبحث عنه الجميع طيلة اليوم لأداء العديد مِن الخدمات السريعة التي لا يُمكنهم التفرُّغ لها، كما أنهم لا يتحمَّلون ساعات العمل الطويلة دون الاعتماد على المشروبات التي يُعدُّها لهم أو لضيوفهم في العمل، إنه عملٌ مُهم بلا شك، لكنه يعيبه أنه عملٌ لا يتطلَّب أيَّة شهاداتٍ دراسيةٍ أو مهاراتٍ خاصة، إنه ذلك العمل الذي يُمكن لأي شخصٍ أن يقوم به بسهولة.

تحرَّك الطابور قليلاً فانتبه صابِر إلى أن عليه أن يتحرَّك هو الآخر إلى الأمام، أخذ يقوم بحصر عدد الواقفين أمامه ببصره، لاحظ أن ثلاثتهم يرتدون ملابس رسميَّة أو شبه رسميَّة، تطرَّق ببصره نحو أولهم، فوجد أن الضابط يُحادثه بطريقةٍ تبعثُ على الاحترام، فمنظرهم يدلُ على أنهم ذوو شأنٍ كبير، تماماً مثل هؤلاء المُدراء في الشركة التي يعمل بها، كثيراً ما فكَّر صابِر في أن يُغيِّر مِن ذوق ملابسه، وحاول أن يُغيِّر مِن طريقة تصفيف شعره، وحاول أن يكون حليق الذقن، لكنه في كُل مرَّةٍ كان يفشل في أن يحصُل على مُعاملةٍ

مُختلفة مِن الآخرين، لم تُفلح مُحاولاته في أن يُرغمهم على أن يحترموه أو ألا ينظروا إليه نظرةً دونيةً. فشلت الملابس في أن تُغيِّر حقيقة كونه مُجرَّد ساعٍ.

جاء الدور على صابِر ليعبُر بوابة المرور، توجَّه إلى البوابة ورفع يده نحو الضابط ليُناوله جواز سفره، وبرغم أن الجميع يمرُّون على ذلك الضابط بوجوهٍ عابِسة، إلا أن الضابط لاحَظَ تلك الابتسامة العريضة التي تعلو وَجْهَ صابِر، بَدَت الدهشة ونظرات الفضول على وجه الضابط بشدَّةٍ، لكنه لم يسأله عن السبب، كان صابِر يتوقَّع مِن الضابط ألا يُحادثه مِثلما فعل مع ذلك الرجل الذي كان يرتدي ملابس رسميَّة، وحتى لو كان مُرتدياً ملابس رسميَّة فهو يُدرك أنه لن يلقى نفس المُعاملة المُحترمة مِن ذلك الضابط أو حتى مِن غيره، كما أن صابِر نفسه كان لا يُريد أن يُحادثه ذلك الضابط، وألا يسأله عن سبب سعادته تلك، هو وحده الذي يُدرك أسباب سعادته ويُريد أن يحتفظ بها لنفسه فقط.

نَظَرَ صابِر إلى ساعة يده رخيصة الثَمَن. ما زال هُناك ساعة ونصف تفصله عن موعد إقلاع الطائرة، ماذا سيفعل الآن يا تُرى؟ أخذ يسير ببُطء وهو يُطالع المتاجر التي تتبع الأسواق الحُرَّة، يسأل نفسه: مَن الذي يشتري تلك الأشياء الباهظة الثَمَن؟ إن أيَّ مُسافر يُمكنه أن يشتري ما يُماثل تلك الأشياء بنصف أو رُبع الأثمان الموجودة هُنا! لماذا يقولون إن تلك البضائع أرخصُ ثمناً مِن مثيلتها خارج المطار؟ وكيف ستكون الأسعار هُناك بالخارج إذا ما أُضيفت رسوم الجمارِك وما شابهها؟ لفتَ نظرَه إحدى الساعات التي يُقدَّر ثمنها بآلاف الجُنيهات، بينما هي تُشبه ساعة يده رخيصة الثَمَن! لم يلحظ أيَّة إمكانيات إضافيَّة في تلك الساعة الغالية حتى تكون بذلك السعر، كما أن ساعة يده -على رخص ثَمَنها وحقارتها- تفي بالغرض

المطلوب تماماً. رُبما كانت الساعة المعروضة أمامه مصنوعة مِن الذهب أو أحد المعادن الثمينة. رُبما.

تَرَكَ المنطقة التي تحتوي على المتاجر، فوجد بعدها مجموعةً مُتلاصقةً مِن المقاهي الحديثة والمطاعِم. اقترب مِن إحداها أكثر وأخذ ينظر إلى أسعار المشروبات المكتوبة بجوار صورها المُعلَّقة على الحائط. يا للهول، لا بُد أنهم مجانين، كُلهم مجانين. هكذا حدَّث نفسه. قال: إن أصحاب المقهى مجانين، والزبائن أيضاً مجانين. إنها أسعارٌ فلكيَّة بالنسبة لأسعار المواد الخام التي يصنعون مِنها تلك المشروبات؛ فصابِر كان يعلم جيِّداً كل أسعار تلك الأشياء، فهو الذي يشتريها بنفسه ويقوم بإعدادها.

تذكَّر صابِر وهو يرى تلك المشروبات والأطعمة ذلك المشروع الذي نَصَحَه به أحد الموظفين بالشركة التي يعمل بها. ابتسم صابِر وهو يُكرر بداخله كلمة "مشروع". فكُل ما في الأمر هو أن ذلك الموظف شجّعه على أن يقوم بإعداد الأطعمة والحلوى والمشروبات الخاصة التي لا تُقدمها الشركة لموظّفيها. أكَّدَ له ذلك الموظف أن باقي الموظفين سوف يتهافتون على تلك الأطعمة والحلوى، وذلك لأنه سيوفر لهم مادةً غذائيةً يحتاجونها، وسيجدون صعوبةً في الحصول عليها في أوقات العمل الرسميَّة. لم يُصدِّق صابِر أن ذلك الأمر مُمكن في بادئ الأمر، لكنه بدأه بالفعل ونَجَحَ نجاحاً رائعاً، وهو ما ساهم في زيادة دخله الشهري قليلاً، بدلاً مِن اعتماده على ذلك الراتب الضئيل الذي يتقاضاه مِن الشركة.

استدار صابر ليبتعد عن تلك المتاجر والمقاهي، وقرَّر أن يتوجَّه إلى صالة انتظار الركّاب، مِن الأفضل أن ينتظر هُناك؛ لأنه لا فائدة مِن احتراق الأعصاب حيث المُبالغات التي لا يتحمَّلها، وصَلَ إلى باب الصالة فوجد موظف شركة الطيران واقفاً أمامه، ناوله بطاقة الصعود إلى الطائرة، فنظر فيها الموظف بسُرعة واقتطَعَ مِنها جُزءاً وناوله الباقي، وَضَعَ صابر ما تبقى مِن البطاقة في جيبه، ودَخَلَ إلى صالة الركّاب، فوجد أنها تمتلئ بعددٍ كبير مِن المُسافرين، أخَذَ يبحث لنفسه عن مقعدٍ شاغر ووجده بصعوبة، جَلَسَ صابر وهو يُطلق زفرةً طويلة تَنُمُّ عن أنه قد أصابه الإرهاق.

نَظَرَ حوله وهو مُندهش مِن أن كُل هؤلاء المُسافرين قد دخلوا مُبكِّرين إلى الصالة مثله، قال في نفسه رُبما هُم أيضاً قد وجدوا أن أسعار المشروبات بالخارج باهظة الثَمَن فقرَّروا الدخول مثله، ابتسم ابتسامةً خفيفة ثُمَ أخذ يتصفَّح وجوههم جميعاً، تبدو على ملامح ذلك الشاب أنه مسرور، هل هو سعيدٌ بالفعل؟ هل تبدو عليه السعادة؛ لأنه مُقبلٌ على أمر ما جيّد أم إنه قد حَدَثَ له أمرٌ سارّ قبل سفره؟

وعلى يساره توجد امرأةٌ يبدو عليها الحُزن، رُبما كانت حزينةً ورُبما كانت مُرهَقة، هل كانت هُنا في زيارةٍ لمريضٍ يهمُّها؟ أم إنها قد مات لديها عزيزٌ ما؟ هل لديها أولاد تشتاق إليهم الآن؟ هل هي مُتزوِّجةٌ أصلاً؟ وذلك الرجُل الذي يرتدي ملابس رسميَّة، يبدو عليه أنه ميسور الحال، هل هو موظف في شركة أم إنه أحد رجال الأعمال؟ وهل هو سعيدٌ في حياته الأسرية مثلما هو ميسور الحال أم لا؟ ما أصعب استنتاج الأحوال مِن مُجرَّد النظر إلى الأشكال، إن البشر تماماً كما يقولون مثل البيوت المُغلقة، حيث خَلْفَ كُل نافذةٍ قِصَّة وحكاية.

الفصل الثاني

أخَذَ صابِر يتأمَّل صالة انتظار الرُكَّاب مِن حوله، إنها صالةٌ بسيطةٌ لا يوجد بها سوى المقاعد وشاشَة عَرْض جداول الرحلات، لاحَظَ أيضاً وجود سمَّاعة الإذاعة الداخلية فوق رأسه مُباشرةً، هل هي سمَّاعةٌ واحدةٌ فقط في تلك الصالة؟ لا بُد أن هُناك سمَّاعة أُخرى في مكان ما، وفجأةً، تردَّد مِن تلك السمَّاعة التي فوقه صوتُ رنينٍ مُتَقطِّع مُعلناً أنه سيتم إلقاء بعض المعلومات أو التعليمات، ابتسم صابِر وكأنه يقول لنفسه هل هي صُدفة أن تُصدر السمَّاعة صوتاً بمُجرَّد أنه نظر إليها؟ ثُمَّ عاتبَ نفسه على الفور، لا بُد ألا يظُنَّ في نفسه كُل تلك الأهميَّة الزائفة، صارَ يبدو أمام نفسه وكأنه أحَد الأطفال الصِغار، رُبما يكون ذلك بسبب فَرْحَة السفر، هكذا أقنَعَ نفسه.

انتبه صابِر وباقي المُسافرين إلى صوت المُذيع الداخلي، بدا صوته بشكلٍ لا يبعث على الارتياح، كما أنه بدأ حديثه بصيغة الاعتذار، تلاها بأن ألقى خبراً صادماً على الفور، فقد أصابَ الطائرة عُطلٌ فنيٌّ كبير، وينبغي عليهم إصلاحه قبل السَفَر، وهو ما سيؤدي إلى تأخير موعِد إقلاع الطائرة!

ضَجَّت الصالة بالصياح والصراخ مِن كل مكانٍ في الصالة. كان الجميع يعترضون على ما سمعوه، وبدأت التعليقات تتردَّد مِن هُنا ومِن هُناك. أخذ صابِر يلتفت يميناً ويساراً نحو كُل تعليق يسمعه وهو مشدوه. كان أحدهم يصرخ وهو يقول: ما هذا الهراء؟ إن هذا التأخير سيُسبِّب مُصيبةً كبيرةً بالنسبة لي. لديَّ طائرةٌ أُخرى ستُقلّني إلى بلدٍ آخر بعد أن نصل إلى هُناك. لا يوجد فاصلٌ زمنيٌّ كبير بين موعِد وصول هذه الطائرة إلى هُناك وبين موعِد إقلاع الطائرة الأُخرى. ماذا سأفعل إذا فاتتني موعِد الطائرة الأُخرى؟ ماذا سأفعل حينئذٍ؟ ماذا؟

فتح صابِر فمه مِن فرط الدَهْشة وهو يستمع إلى ذلك الرجُل. لقد كان الرجُل يصرخ كالمجنون ويبدو عليه التَوَتُّر الشديد. يبدو أنه ليس مِن سكّان المدينة التي كانوا سيسافرون إليها الآن. ويبدو أنه لن يجد مكاناً يبيت فيه إذا فاتته تلك الطائرة الأُخرى. ورُبما كان مِن الصعب أن يجد مكاناً على طائرةٍ مُماثلة في اليوم التالي مثلاً. رُبما أشياءٌ كثيرة جداً.

قطع تفكيره صوت امرأةٍ على مقربةٍ مِنه وهي تتحدَّث بصوتٍ مسموعٍ مع امرأةٍ أُخرى. وهي تقول لها: يا لها مِن مُشكلةٍ بحق. لقد وضعتُ في حقائب السفر كميَّاتٍ كبيرةٍ مِن اللحوم والأطعمة. ماذا لو تأخَّر موعد إقلاع الطائرة كثيراً؟ ستفسد تلك المأكولات بالطبع. وستكون خسارةً كبيرة. لقد فعلتُ ذلك مِن أجل أن نقوم بتوفير بعض المال. فأسعار تلك الأطعمة هُناك أغلى بكثير مما هي عليه في بلادنا هُنا. بخلاف أن طعمها هُنا أطيَبُ كثيراً. يا للخسائر التي تأتي مِن حيث لا ندري!

ردَّتْ عليها الأُخرى قائلةً: يا لها مِن مُشكلةٍ كبيرةٍ بالفعل. أنا الأُخرى ينتظرني زوجي هُناك بالمطار ليستقبلنا أنا والأولاد وليُقِلنا نحو المنزِل. لا بُد أنه سيقلق علينا كثيراً. هذا بخلاف أنه لا يُمكنه أن يسهر كثيراً في الليل. إنه يستيقِظ في الخامِسة والنِصف صباحاً كُل يومٍ ليذهب إلى عمله. سيتأثَر كثيراً وسينتابه التعب والإرهاق في الغد إذا نامَ مُتأخراً هذا المساء.

تلفَّتَ صابِر نحو اليَسار. فوجَدَ رجُلاً يقُلِّب كفَّاً بِكفٍ ويقول لجاره: يا لها مِن كارثةٍ. هزَّ رأسه يميناً ويساراً ثُمَّ قال وهو ينهض مِن كُرسيه: ماذا سأفعل الآن؟ ماذا سأفعل؟ لقد كان مُقرَّراً أن تدخُل زوجتي إلى المُستشفى وقت صلاة الفجر بعد ساعاتٍ قليلةٍ. إنها ستُجري عمليَّةً جراحيَّةً في الصباح الباكر. لقد تَمَّ تحديد موعِد تلك العمليَّة بصعوبةٍ شديدة. كما أن حالة زوجتي لا تحتمل التأخير. ماذا لو تأخَّرَت الطائرة كثيراً؟ هل أترك زوجتي وحدها تواجِه تلك الجِراحَة الصعبة بمُفردها؟ ومَن سيكون بجانبها إذا احتاجت إلى أيّ شيء؟ هزَّ رأسه ثانيَةً ثُمَّ خبَّأ وجهه بين كفيه وجَلَسَ مرَّةً أُخرى.

نَظَرَ إليه جاره بشفقةٍ. ثُمَّ أشاح بوجهه بعيداً عنه والتَفَتَ إلى مَن بجوارِه وقال: لا يوجد أحدٌ فينا إلا وينتظرُه شيءٌ ما هُناك. أنا مثلاً ينتظرني أولادي لكي أقوم بتوصيلهم إلى المدرسة بنفسي. لا أدري ماذا ستفعل زوجتي لو تأخَّرت عليهم؟ هل ستُحاول أن تبحث عن سيَّارة أُجرة في ذلك الصباح الباكر؟ وكيف ستفعل ذلك ونحنُ نسكُن بعيداً عن الطريق الرئيسي؟ أم إنها ستُقرِّر أن تُبقي الأولاد في المنزِل فيضيع عليهم يومهم الدراسي؟ يا له مِن موقفٍ سخيف؟

فردَّ عليه مَن يجلس أمامه وقال: نعم إنه موقفٌ سخيف للغاية، فأنا لديَّ موعِدٌ مهمٌ جداً مع أحد رجال الأعمال المُهمّين، لقد عانيتُ كثيراً حتى أحصُل على هذا الموعِد، ستضيع عليَّ فُرصةٌ كبيرةٌ في عملي لو أنني لم أذهب في موعدي، يا ليتني كنتُ سافرتُ أبكَر مِن ذلك بيومٍ أو يومين، ولكن بماذا يُفيد النَدَم الآن؟

استمرَّتْ تلك التعليقات لمُدَّةٍ ليست بالقليلة، كان الجميع يتحدَّثون في وقتٍ واحدٍ، وكان لكُل مِنهم شكوى وقِصَّة غير الأُخرى، أَخَذَ صابِر نَفَساً عَميقاً ثُمَّ نَظَرَ إلى أعلى حيث السمَّاعة اللعينة التي أُذيعَ مِنها ذلك الخَبَر السيئ، سَرَحَ ببَصَرِه قليلاً نحوها ولم يعُد يسمع تفاصيل الكلام الذي يدور مِن حوله، صار يسمع فقط ضجيجاً مُتوسطاً وخليطاً مِن الهمهمات وكأنها موسيقى خَلْفية للمشهد الذي يراه هو فقط، كان يتخيَّل شكل الشركة التي يعمل بها، هل ستتأثَّر كثيراً بتأخُّرِه؟ هل ستكون هُناك مُشكلة بالنسبة له؟ لماذا هو فقط الوحيد الذي ليس له رد فعل مثل الآخرين إزاء خَبَر تأخُّر موعد إقلاع الطائرة؟ لماذا استقبل الخَبَر ببساطةٍ شديدةٍ وكأن الأمر لا يعنيه كالآخرين؟ لقد كانت ردود الأفعال مِن حوله قويَّةً جداً بينما هو الوحيد الذي لم يشعر بوجود مُشكلة، لم يحزن ولم يفرح أيضاً.

ما دلالة ذلك يا تُرى؟ سأل صابِر نفسه، هل يعني ذلك أنه يعيش بالفِعل على هامِش الحياة؟ هل هذا هو الدليل على أن حياته ليس فيها مِن الأمور ذات القيمة؟ ألا يكفي ذلك ليوضِّح لنفسه لماذا لا يجد مِن الآخرين ذلك الاحترام الذي يفتقده، وكثيراً ما عانى مِن أجل أن يكتسبه بطريقةٍ أو بأخرى؟

ماذا ينتظرك يا صابِر؟ سأل نفسه مُجدداً. فكَّر قيلاً ثُمَّ قال في نفسه: رُبما لا ينتظرني أمرٌ مهمٌ كالآخرين، رُبما لن يتسبَّب تأخير موعِد إقلاع الطائرة في حدوث مُشكلةٍ كبيرةٍ بالنسبة لي مثلهم، لكن مُشكلتي الحقيقية أكبر مِن مشاكلهم جميعاً. فكلُّ هؤلاء قد نَشَأتْ مشاكلهم بسبب أنهم قد اجتازوا قدراً كبيراً مِن الحياة التي لم يُحققها هو بعد. فهذا تزوَّج، وهذهِ لها أولاد، وذلك رجُلُ أعمال، إن لكل منهم الكثير مِن الإنجازات التي حققوها، فأضافتْ عليهم العديد مِن المسؤوليات الأكثر ضخامةً. أما أنا، فينقصني كُل شيء، لم أُحقق أيَّ شيء، تنقصني الحياة بأكملها.

الفصل الثالث

هدأ الرُّكاب تدريجياً إلى أن خفَّت حِدَّة تلك الضوضاء العالية التي حدثت عندما كان الجميع يتحدَّثون في وقتٍ واحدٍ، إنه أمرٌ يجلب الصُداع، حسناً فعلوا بأن التزموا الهدوء لبعض الوقت، قام صابر بتشبيك يديه معاً ووضعهما خَلْفَ رأسه ثُمَّ أراحَ مؤخِرَة رأسه عليهما، أخذ ينظر إلى اللاشيء، كم يكون الوقت الآن يا تُرى؟ رُبما مرَّ ثُلث أو نِصف ساعة على الأكثر، كان يُريد أن ينظر إلى ساعة يده، لكنه أصابه الكَسَل بحيث إنه لا يريد أن يُحرِّر يديه مِن خلف رأسه، فقد ارتاح لهذا الوضع ويُريد أن يبقى عليه لفترةٍ أطْوَل.

مالَ برأسه إلى الوراء أكثر ونَظَرَ إلى أعلى، التَقَتْ عيناه بسمَّاعة الإذاعة الداخليَّة مُجدداً، سألَ نفسه نفسَ السؤال الساذِج الذي لا معنى له: هل هذه هي السمَّاعة الوحيدة هُنا في هذه الصالة؟ أمعَنَ النَظَرَ فيها لعلَّها تُحدِث صوتاً مِثلما حَدَثَ في المرَّة السابقة، ابتسم مِن فَرْطِ سذاجته، ثُمَّ قرَّر أن يُغمِض عينيه ليُريحهما قليلاً، وقبل أن يُغمِض عينيه إذ بالسمَّاعة تُصدر صوتاً بالفِعْل! نفس صوت الرنين المُتَقطِّع الذي يُعلن عن إلقاء بعض

المعلومات الجديدة، اتسعتْ عينا صابِر بشدَّةٍ، فمِن غير المعقول أن تَحدُثَ نَفْس الصُدفة مِن جديد، إنها المرَّة الثانية التي تُحدِثُ فيها السمَّاعة صوتاً بمُجرَّد أن ينظُر إليها! حرَّر صابِر يديه مِن خلف رأسه وانتبه مِثله مِثل الآخرين، كان الجميع يتأمَّلون سماع الأخبار عن موعِد إقلاع الطائرة.

كان صوتُ المُذيع الداخلي مُقتضباً أكثرَ مِن المرَّة السابقة، أعلَن على الملأ أن مُهندسي الصيانة قد أخطروهم بأن العُطل الفنِّي يبدو كبيراً، ولا بُد مِن استبدال قِطعَة غيار جديدة لإحدى الأجزاء المهمة في مُحَرِك الطائرة، وهو ما سيستغرق وقتاً طويلاً، ثُمَّ أنهى الإعلان بتقديم اعتذار شركة الطيران عن ذلك التأخير الخارج عن إرادتهم، وأن الشركة ستُحاوِل أن تَجلِبَ بعضَ المأكولات والمشروبات لتُقدِّمها إلى المُسافرين.

وقعتْ كلمات الإعلان كالصاعقة على الجميع، كان الأمر صادماً لدرجة أنهم لم يقوموا بالصياح والصراخ كالمرَّة الأولى عندما أُذيعَ الإعلان السابِق، بل خيَّم الوجوم على الجميع وأخَذَ كُل مِنهم يُفكِّر في توابِع تلك الكارثة، كانت وكأنها إحدى لحظات الانهيار، فقد كان الخَبَر كالموْجَة العالية أو الطوفان الذي تخُور أمامه القوى، وبدا الجميع وكأنهم سلَّموا بالأمر، وأخَذَ كُل مِنهم يُفكِّر في حَجم خسارته التي سيُصاب بها مِن جراء ما حَدَث.

تصفَّح صابِر بعض الوجوه مِن حوله، كان الجميع رجالاً ونساءً يبدو عليهم جميعاً نفس الانطباعات والتعبيرات، كانوا جميعاً كمن ماتَ له عزيزٌ ما أو ضاع مِنه آلافُ الآلافِ الجُنيهات، كأن هُناك مُصيبةً ما حلَّت عليهم، تَمَنَّى صابِر لو أنه توجَد مرآةٌ لينظُر فيها فيرى شكل تعبيرات وجهه هو الآخر، لا يشعر بأن في الأمر كارثةً مِثلما يشعرون، لكنه كان يتَمَنَّى أن يرى وجهه حتى يستطيع أن يُغيِّر مِن قسماته وتعبيراته ليبدو حزيناً أو مُكفهراً مِثل بقيَّة

المُسافرين. حاول أن يبدو أكثر عُبوساً لكنه لا يدري هل يبدو حُزنه طبيعياً أم مُصْطَنعاً؟
سَرَتْ في الصالة بعض الهمهمات فنَظَرَ صابِر نحو مصدرها، فوجد أن أحَد موظفي شركة الطيران قد دَخَل إلى الصالة وهو يدفع أمامه عَرَبَةً صغيرة عليها بعض المأكولات والمشروبات. تجوّل الموظف بين المُسافرين وهو يدفع العَرَبَة أمامه، كان يقوم بتوزيع زجاجة عصير صغيرة جداً، وكذلك قطعةً مِن الفطائر المغلَّفة لكُل مُسافر. نَظَرَ كُلُّ فَردٍ إلى ما حَصَلَ عليه باندهاش، كان ما تمَّ توزيعه ضئيلاً للغاية ولا يُشبع طفلاً صغيراً.

انطلقت التعليقات الساخِرة مِن هُنا وهُناك، قال أحدهم: هل هذه هي المأكولات التي ستُقدِّمها شركة الطيران أم إنها عيِّناتٍ لما سيَتِم تقديمه فيما بعد؟ وقال آخر: هل تمَّ توزيع هذه المأكولات على أنها وجبةٌ واحدةٌ أم إنها ستكفي لإشباعهم بدلاً مِن الثلاث وَجَبات القادمة؟ زادت الاعتراضات هُنا وهُناك، وعلا صوتُ المُسافرين في كل جَنَبَات الصالة، وما هي إلا لحظاتٍ حتى تَجَمَّع بعضُ المُسافرين أمام البوابة، وصاحوا بأنهم يريدون التَحَدُّث إلى أحد المسؤولين، ولمَّا تأخَّر وصول أحدهم ازداد صياحهم بصوتٍ أعلى أكثر، كانت الضوضاء فوقَ الوَصْف، فالجميع يتحدَّث ويعترض داخل الصالة في وقتٍ واحدٍ، وهؤلاء الواقفون عند البوابة يصرخون وينادون على المسؤولين بصوتٍ عالٍ، كان الوضع مؤسفاً للغاية.

هَرَع أحد المسؤولين نحو البوابة وأخَذ يشير بكلتا يديه إلى الجميع طالباً مِنهم الهدوء؛ حتى يستطيع أن يستمع إليهم ويتعرَّف على مشاكلهم، هدأ الجميع قليلاً، وبدأ الأشخاص الواقفون عند البوابة بالتحدُّث بعصبيَّةٍ شديدةٍ، كان هُناك أكثر مِن فردٍ يتحدُّث في نفس الوقت، وهو ما أثار استياء

ذلك المسؤول، فرَفَع صوته بشدَّةٍ وقال: لن أستطيع أن أتفهَّم مُشكلتكم هكذا، أُريد أن يتحدَّث واحدٌ مِنكم فقط..
قال أحدهم: لقد كان موعِد إقلاع الطائرة الآن تقريباً، لكن الطائرة بها عُطلٌ كبيرٌ قد يستغرق وقتاً طويلاً، ونحن ننتظرُ هُنا في المطار مُنذ وقتٍ طويل، فمِنَّا مَن جاء إلى هُنا منذُ ساعتين، ومِنَّا مَن جاء منذُ ساعةٍ ونِصف، ولا يُمكننا الاعتماد على تلك الوجبَة الصغيرة، نحن لا نُريد مِنكم شيئاً فهذه هي إمكانياتكم الآن، نحن فقط نُريد أن نخرج لنشتري وَجَباتٍ ساخنةٍ ومُشبِعَة مِن المطاعم التي تقع خارج الصالة.

سَرَت الهمهمات العالية بين الواقفين، مُعلنين موافقتهم على ما قاله ذلك الرجُل الذي نابَ عنهم في الحديث، فقد كان الكلام موضوعياً ومَنطِقياً للغاية، لكن المسؤول فاجأهم قائلاً: ما تطلبونه أمرٌ غيرُ قانونيٌ يا سادة، أنتم الآن تُعتَبرون خارج البلاد، لقد عبَرتم بوابة جوازات السَفَر، وكذلك بوابة التفتيش التي تَسبِق الصالة التي أنتم فيها الآن، لا يمُكننا السماح لكم بالخروج، أعتذرُ مِنكم يا سادة..

اعترضَ جميع الواقفين أمام المسؤول بشدَّة، وعَلَتْ أصواتهم، أصرَّ الجميع على أن كلام المسؤول هذا غيرُ مَنطِقي أبداً، فهُناك فارقٌ كبيرٌ بين روح القانون ونَصِّ القانون، قال أحدهم: أيُّ قانونٍ هذا الذي يقوم بتجويعنا نحن وزوجاتنا وأطفالنا؟ أيُّ قانونٍ هذا الذي يجعلنا نموت مِن العَطَشِ لساعاتٍ طويلةٍ؟

حاول المسؤول أن يُقنعهم بوِجهَة نَظَرِه، لكن ثورتهم كانت أكبر بكثيرٍ، هدَّد الجميع بأن يقوموا بتحطيم بوابَة الصالة إذا أصرَّ المسؤول على رأيه المُتعسِّف هذا، فما كان مِن ذلك المسؤول إلا أن أشار إليهم بأن يهدأوا وأن

يمنحوه فُرصةً للتحدُّث إليهم، هدأ الجميع ليتمكّنوا مِن سماعه، فقال: أتفهَّم وِجهَة نَظَرِكم تماماً صَدِّقوني، لكنها القوانين اللعينة والرَسميَّات الحقيرة، سأقترح عليكم شيئاً، لتختاروا فيما بينكم شخصاً واحداً فقط، سأسمح له بالخروج مِن الصالة على مسؤوليتي الشَخصيَّة وليكون تحت عينيَّ، وليكُن هذا الشخص هو الذي يجلِبُ لكم ما تُريدونه مِن خارج الصالة، هذا أقصى ما يُمكنني عَمَلُه لمُساعدتكم، وهو للعِلم أمرٌ غيرُ قانوني على الإطلاق.

سَرَتْ همهماتٌ جديدة بين المُسافرين، تناقشوا فيما بينهم بسُرعة في جدوى ذلك الحل الوَسَط، بدا وكأنهم موافقون عليه مِن حيث المبدأ، لكن المُشكلة في التنفيذ، فمَن هو ذلك الشخص الذي سيتطوَّع لأداء تلك المُهِمَّة؟

أنا.. أنا الذي سأقوم بذلك، إنها وظيفتي الحقيقية يا حَضَرات السادة الأفاضِل..

كان ذلك هو صابِر، قالها بِفَرَحٍ شديد وهو يسحب مِن جيبه مُفَكِّرةً صغيرة وقلماً، ثُمَّ هَزَّ رأسه بزهوٍ شديد، وتوجَّه إلى أقرب الواقفين إليه وقال: قل لي، ماذا تُريد أن تطلُب يا سيِّدي؟

الفصل الرابع

أيوه جااي..

كان صابِر يقولها وهو يذهب جيئة وذهاباً عندما يأتي بالمشروبات والمأكولات، تماماً مِثلما يصيح الساقي في المقاهي الشعبية المصرية الجميلة، كان يقولها كُلَّما أحضرَ أحَد الطلبات مِن خارج الصالة فيضحك الجميع، أشعل ذلك جَواً مِن المَرَح والانتعاش بين المسافرين بعد فترةٍ طويلةٍ مِن العبوس والضيق، أما صابِر نفسه فقد كان يشعُر بسعادةٍ بالغةٍ، لقد أصبحَ فجأةً أهمَّ شخصٍ بين كُل هؤلاء المُسافرين، بِخلاف أنَّه سيتكسَّب بعض الأموال؛ لأنَّه قرَّر ألا يذكر أسعار الطلبات الحقيقية، بل كان يُضيف على سِعرها الأصلي هامِشاً بسيطاً، لن يستطيع أحد أن يتأكَّد مِن حقيقة الأسعار، لن يتمكَّن أحد مِن الخروج مِن الصالة.

كان صابِر يتوقَّع أن يُدوِّن العديد مِن الطلبات في وقتٍ واحدٍ، لكنَّ ذلك لم يحدُث، فقد ارتاح الرُكَّاب لإمكانيَّة خُروج صابِر ودُخوله في أي وقت، لذا بدا أنَّ الجميع لن يطلبوا احتياجاتهم في وقتٍ واحدٍ، أدركَ صابِر ذلك عندما

كان يمُر على الجميع، فيجد مَن يقول له: لا نحتاج شيئاً الآن يا عزيزي لكن رُبما بعد قليل، هلا تكرَّمت بأن تؤجِّل تدوين طلباتنا لجَوْلَتِك القادمة؟ كانوا يتحدَّثون معه بأدبٍ جَمٍ هذه المَرَّة، وهو ما جَعَلَ صابِر يَسْعَد بتلك المُهِمَّة التي رُبما قد ينفر مِنها الجميع، بل تمنَّى أن يطول وقت الانتظار أكثر وأكثر، يُريد أن يشعُر بأهميَّتِه لِفَترَةٍ أَطوَل، ويُريد أن يَستمتع باحتياج الآخرين له وتَعلُّقهم به، فما كان مِنه ألا أن وَعَد الجميع بِعَمَل جَوْلَةٍ أُخرى كُل فَترَةٍ قَصيرةٍ مِن الزَمَن، وهو ما جَعَل الجميع يَشكرونه بِشدَّةٍ.

كان صابِر قد أنهى جَوْلَته الأولى، وقَرَّر أن يَجلس قليلاً، أشارَ إليه رجُلٌ عَجوزٌ بالجلوس في مقعد شاغرٍ يواجهه تماماً، فَرَفَع صابِر يدَه شاكراً ذلك العَجوز، ثُمَّ تَوجَّه إلى ذلك المقعد وجَلَسَ عليه، ابتَسَمَ الرجُل العَجوز ثُمَّ بدا وكأنَّه يَستكمِل حديثه مع جاره الشاب، فقال: فقط خمس سنوات؟ كُلُّ هذا الشُعور بالغُربة بسبب خمس سنوات فقط؟
فأجابه الشاب: أجل يا سيدي، لقد مرَّت عليَّ بصعوبةٍ شديدةٍ، لقد شعرت بهم جميعاً يوماً بيوم..
فقال العَجوز: أتدري كم لي أنا وزوجتي هذه في الغربة؟ قالها وهو يُشير إلى امرأةٍ عَجوز تَجلِس بجواره على يساره..
فسأله الشاب: كم عاماً يا سيِّدي؟
فأجابه: إننا معاً هُناك منذُ ثلاثين عاماً، أمَّا أنا فقد كنتُ قَبْلَها بعامين..
اندهش الشاب وصاح قائلاً: ماذا؟ أكثر مِن ثلاثين عاماً؟ كيف تحمَّلت كُل تلك السنوات الطَويلة يا سيِّدي؟ إن اليوم الواحد يمرُّ عليَّ بطيئاً وثَقيلاً هُناك، فما بالك بالشهر؟ بل بالعام؟ بل بالثلاثين عاماً؟
ضحك العَجوز وقال: صدِّقني لقد مرُّوا سريعاً دونَ أن أشعُر..

فقال الشاب: لا بُد أن هُناك سِراً في ذلك، خَبِّرني ذلك السِر الذي مَكَّنك مِن تَحَمُّل تلك الأعوام الطويلة، كيف استطعت ألا تشعُر بِثِقَل الأيَّام وبُطء الليالي؟

ابتَسَم العَجوز وقال: أمُتزوِّجٌ أنت؟

ردَّ عليه الشاب بوَجْهٍ عابِس: مع الأسف لا..

فيسأله العَجوز: ولِمَ لَمْ تتَزوَّج بعد؟ ألَمْ يَكفِك العَمَل بالخارج لمُدَّة خمس سنوات كي تكون مُستعداً مادياً للزواج؟

ازداد ضيق الشاب وقال: أجل أنا مُستَعِدٌّ لنفقات الزواج، ولكن ليست تلك هي المُشكلة يا سيِّدي..

فسأله العَجوز: وما المُشكلة إذاً؟ ما الذي يمنعك؟

أجابه الشاب: وكيف لي أن أجِدَ زوجةً مُناسِبةً بينما أنا لا أعود لبلادي سوى فترةٍ قصيرةٍ كُل عام، إن عُطلتي السنويَّة لا تزيد على الشهر الواحد في أحسن الأحوال كُل عام..

تلفَّت العَجوز يساراً نحوَ زوجته ثُمَّ عاد ببصره نحو الشاب وقال: ألا يكفيك شهر كامل حتى تختار زوجة؟

فقال الشاب بِحدَّةٍ: كيف يكون ذلك يا سيِّدي؟ كيف؟

أجاب العَجوز: أغلبُ شباب المُغتربين يفعلون ذلك..

فقال الشاب: تَقصِد أنهم يشترون زوجةً ويحملونها ويعودون بها..

تَغيَّر وجه العَجوز بشدَّة، تَلفَّت مَرَّةً أُخرى نحوَ زوجته، فوجدها تنتبه إلى حواره مع ذلك الشاب، ارتبك العَجوز بوضوح ثُمَّ نَظَرَ إلى الشاب وقال بِتَلَعثُمٍ واضحٍ: ليس الأمر كذلك بالضبط..

فقال الشاب: بالعكس، إنه كذلك تماماً، كيف لشهرٍ واحدٍ أن يكون كافياً لكي تتأكَّد مِن أن تلك الفتاة هيَ التي تتوافق معك تماماً، كيف يختبر كُل مِن

الشاب والفتاة قلبهما ومشاعرهما وطباعهما وعاداتهما في شهرٍ واحدٍ؟ هل يُعقل ذلك يا سيّدي؟

أجابه العَجوز بَعد تفكير: كُل ذلك يأتي بعد الزواج بالتدريج، المُهم أن يحدُث الارتياح المبدئي أولاً، فكثيراً ما يحدُث التنافُر وعدم الارتياح منذُ اللقاء الأول، إلى أن تَجِدَ يوماً تلك الفتاة التي كتبها الله لك زوجةً، حينها ستجد نَفسَك مُرتاح القلب ومُرتاح البال لاختيارها، بل إنك ستبدأ في حُبِّها أيضاً يوماً بعد يوم وكأنَّك تَعرفها منذُ زَمَنٍ طَويل..
فتح الشاب فاه مُعرباً عن دَهشته، وقال: أتعني أن اختيار الزوجة يعتمد على مجموعة مِن العلامات والإشارات؟
ابتسم العَجوز وقال: يا لك مِن ذَكي، هذا بالضبط هو ما أعنيه، فعندما تكون الفتاة هي الزوجة التي كتبها الله لك، ستَجِد نَفسَك مدفوعاً دونَ أن تدري لإتمام خطوات الزواج الواحدة تلو الأُخرى، إلى أن تَجِدَ نَفسَك مُتورِّطاً..

أخَذ العَجوز يضحك ممَّا قاله، ثُمَّ أخَذَ يَسعَل بشدَّةٍ، أخرَج منديلاً مِن جيبه ووضعه على فمه ثُمَّ أعاده إلى جيبه مرَّةً أخرى، ابتسم نَحْوَ الشاب الذي كان ينتظره حتى ينتهي مِن سُعاله، ثُمَّ باغَتَه الشاب قائلاً: وماذا عن الحُب؟ ماذا عن العِشق؟
انطَفَأت ابتسامة العَجوز، وقال: بعد الزواج تأتي المودَّة والرحمة بين الزوجين..
فقال الشاب: تعني العلاقة الطيِّبة.. أليس كذلك؟
أجابه العَجوز: أجَل، وهُناك الحُب أيضاً..

فقال الشاب: أيُّ حُب؟ ما أفهمه هو أن يُحب الشخص فتاة ما ويعشقها ولا يستطيع أن يعيش دون أن يراها كُل يوم، وبالتالي فهو يريد أن يتزوَّجها كي يعيش مُلتصِقاً بها طِيلَة حياته؛ لتُطفئ مِن لهيب شوقه إليها، ذلك اللهيب الذي يَشتَعِل بِقلبه حينما تكون بعيدةً عن مرأى عينيه..

صَمَتَ العَجوز، فاستطرد الشاب قائلاً: قُل لي يا سيِّدي، هل كُل مَن تزوَّجوا دونَ حُبٍ سابِق، نَجَحوا في أن يتولَّد بينهم الحُب والعِشق والسِحر بعد الزواج؟

قال العجوز: بالطبع لا.. هُناك حالاتٌ وحالات..

ابتسم الشاب وقال: وهل كُل الزيجات التي تمَّتْ بتلك الطريقة، استمرَّت بنجاح؟

ردَّ العَجوز: أيضاً لا، فاحتمال الفَشَل يَظلُّ قائماً، لكنَّ احتمالات النجاح أكبر مِن احتمالات الفَشَل..

قال الشاب: ورُبما كان الفَشَل هو الغالب، لكنَّ الظُروف تَمنَع الزوجين مِن الانفصال، إنَّك تقيس الفَشَل وفقَ عدد حالات الانفصال، لكن كَم مِن حالاتٍ اختارتْ أن تستكمل الحياة كما هي بينما القلوب مُنفَصِلة؟ إنَّ الطلاق الروحي أشدُّ وطأةً مِن الطلاق الفعلي يا سيِّدي..

بدا العجوز وكأنَّه عاجِزٌ عن الرَدّ، التَفَتَ مَرَّةً أُخرى نَحْوَ زوجته وهو يبدو عليه الحَرَج، ثُمَّ نَظَرَ أمامَه فالتَقَتْ عيناه بعيني صابِر الذي كان يُتابع ذلك الحديث بشَغَفٍ شَديدٍ دونَ أن يُلاحظه أحَد، ثُمَّ استدار العَجوز نَحْوَ الشاب وكأنَّه يُخفي زوجته مِن خَلْفِه، وقال: كُل ما قُلته لا يجب أن يثنيك عن المُحاولة، فمَنْ يدري، فرُبما رَزَقَك الله بمَنْ تكون فيها الخير لك دونَ ترتيب..

فقال الشاب وهو يَبتَسِم: لا أُريد أن أقوم بتلك المُقامرة التي رُبما تَفشَل ورُبما تَنجَح. لا أُريد أن أظلم نفسي أو أظلم فتاةً أُخرى في تجربةٍ ثُمَّ ننتظر فيها حظوظنا..

قال العَجوز: لا بُد أن تُحاول، ولا تترُك نَفسَك هكذا، ستمُر السنين وسيسرقك قطار العمر، الموضوع يستحق التجربة..

قال الشاب وهو يُدرك أنّ الحوار قد صارَ ثقيلاً جِداً على العَجوز: تُحدِّثُني وكأنَّني سأشتري قِطعة أثاثٍ وليس زوجة..

صَمَتَ العجوز، فاستطرد الشاب قائلاً: لَدَيَّ خِطَّةٌ أُخرى، لا مَفَرَّ مِنها..

ثم قال الشاب: لا بُد لي مِن إنهاء سنوات الغُربة تلك، لا بُد لي مِن العَودة إلى بلدي، شَهرٌ واحدٌ كُل عامٍ لا يكفي لعَمَل أيِّ شيء..

بدا الانزعاج على العجوز وقال: هل يُعقل أن تهدم ما بنيته في الخارج مِن أجْل أن تُحب وتَتزَوَّج؟ أيستحق الأمر كُل ذلك؟

قال الشاب وهو يبتسم: بالطبع لا، ليس بسبب الزواج فقط، أنا لا أقوم ببناء أيِّ شيءٍ بالخارج يا سيِّدي، كُل ما أفعَله سيبقى للآخرين، بينما أنا في النهاية موظَّفٌ أعمل نَظيرَ أجر، رُبما لو عُدتُ إلى بلدي قد أقوم بعمل شيءٍ ما خاص بي، حينها ينطبق عَليَّ القول بأنني أبني شيئاً بِحَق.. صَمَتَ الجميع لبُرهةٍ، ثُمَّ نَظَرَ العَجوز إلى ساعة يده، وقال: لقد مرَّت ساعةٌ كاملةٌ الآن مِن زَمَن الإقلاع، ولم يتحدَّث إلينا أحدٌ حتى الآن!

هَزَّ الجميع رؤوسهم باستياء، ثُمَّ رَفَعَ صابِر رأسه ليجِد أحدهم يُشير إليه بيديه يستأذنُه في الحضور إليه، فنَهَض صابِر فجأة بمُنتهى النشاط وقال: أبوه جاااي..

الفصل الخامس

أنهى صابِر جولته الثانية بين الركاب والتي لم تستغرق وَقتاً طَويلاً على عكس ما كان يتوقَّع، ويعني ذلك بالنسبة له أن المكسب سيكون أقلّ في هذه الجولة، لكنَّه لم يهتم بذلك، بل إنَّه كان أكثر سعادةً في هذه الجولة مِن سابقتها، إنَّها المرَّة الأولى التي يُناديه فيها أكثر مِن شخصٍ بالأُستاذ صابِر! فقد كان العديد مِن المُسافرين مُحرَجين للغَاية وهُم يطلبون مِنه أن يأتي لهم ببعض المشروبات أو المأكولات، إنَّهم لا يعرفون عنه سُوى أنَّه أحد الرُكَّاب مِثلهم تماماً، بينما هو ينسى ذلك باستمرار، لم ينجح في أن ينسى عمله الأصلي كساعٍ، وكان يُدوّن الطلبات ويقوم بإحضارها بعفوية شديدةٍ، فقد كان يتعامَل مع الرُكَّاب وكأنَّه نادِل في مقهى أو مطعم، لكنَّ كُلمة "الأُستاذ صابِر" جعلته يتنبَّه إلى نفسه، ويتذكَّر أنَّه أحد الرُكَّاب مِثلهم تماماً، كم يعشق تلك اللحظات التي يتساوى فيها مع الآخرين، والأجمل مِن ذلك تلك الأهميَّة التي هو فيها الآن، لدرجة أنَّه قد أصبح يُدعى "الأُستاذ صابِر".

دسَّ صابِر النقود في جيبه وهو يتمنَّى أن يتمكَّن مِن حَصْرِها لمعرفة إجمالي ما تَحَصَّلَ عليه حتى الآن، لكنَّه لن يستطيع أن يقوم بذلك أمام المُسافرين، نَظَرَ حَولَه ليتفقَّد الأماكن الشاغرة ليجلس ويرتاح قليلاً، فتفاجأ بأن مقعدَه الأوَّل والذي كان مُواجهاً للرجُل العَجوز لا يزال شاغراً!

كان الرجُل العَجوز مُغمَض العينين وكأنَّه نائمٌ أو أنَّه يُريح عينيه قليلاً، توجَّه صابِر نحوَه في هدوءٍ وجَلَسَ على المقعد المُواجه للرجُل العَجوز دونَ أن يُحدثَ صوتاً، حاول أن يُمدد ساقيه قليلاً ليُريحهما مِن عناء الوقوف والحركة التَرَدُّدية بين الصالة ومِنطقة المطاعم، رفع رأسه، فوجد السَيِّدَة العَجوز زَوْجة الرجُل الجالِس أمامه تنظر إليه بنَظرَةٍ فاحصةٍ، ثُمَّ أشاحتْ بوجهها يساراً وشَرَعَتْ تسأل جارتها الشابَّة: ألا تُريدين بعض الماء؟ إن لدينا قارورةً إضافيةً..

فاجابتها السَيِّدَة الشابَّة: أشكُرك على كَرَمك يا عزيزتي، لديَّ أنا وزَوْجي قارورتين لم نشرب مِنهما شيئاً بَعْد..

ابتسمت السَيِّدَة العَجوز وقالتْ: حسناً، بالهَناء والشفاء..

ردَّتْ عليها السَيِّدَة الشابَّة بابتسامةٍ خفيفةٍ وهي تُومِئ برأسها بهدوء، ثُمَّ أشاحتْ بوجهها بعيداً عنها، لكنَّ السَيِّدَة العَجوز كان يبدو عليها الفُضول، فقالت لها وهي تربتْ على ذراعها لتَنْتَبِه إليها مِن جديد: هَل هذه أوَّل مَرَّة تُسافرين فيها أم إنَّك مُقيمةٌ هُناك؟

وجَّهَت السَيِّدَة الشابَّة رأسها نحوَ السَيِّدَة العَجوز مِن جديد، ثُمَّ قالت وهي يبدو عليها عدم الرغبة في الاسترسال في الحَديث: لا، إنَّها ليستْ أوَّل مَرَّة.. لكنَّ السَيِّدَة العَجوز لم تَملَّ وأردَفَتْ: مِنذُ متى وأنتِ مُقيمةٌ هُناك؟

ردَّت السَيِّدَة الشابَّة باقتضابٍ: أربع سنواتٍ..

فقالت السَيِّدَة العَجوز: وزَوْجك؟ مِنذُ متى وهو هُناك؟

ترددت السَيِّدَة الشابَّة وبدا أنَّها لا تُريد الإجابة عن ذلك السؤال، ثُمَّ قالت وهي تتحسَّس حُروفها: ثلاث سنواتٍ..

اتّسَعَتْ حَدَقتا السَيِّدَة العَجوز، وقالت في دهشةٍ شَديدةٍ: كيف يكون ذلك؟ هل كُنتِ تعملين هُناك قبل زواجِك ثُمَّ تَزوَّجتِه بعد ذلك؟

بدا على السَيِّدَة الشابَّة وكأنَّها قد وقعتْ في مُشكِلةٍ كانت تتجنَّبها، فقالت في استسلامٍ: إنَّها قصةٌ طَويلةٌ يا عزيزتي..

فَهِمَت السَيِّدَة العَجوز أن لدى السَيِّدَة الشابَّة تفاصيل عديدة رُبما تَخجَل مِن أن تحكيها، وهو ما زاد مِن فُضولها أكثر وأكثر، فأمسَكَتْ بيدها ورَبتَتْ عليها برفقٍ وقالت: لا تَخْجَلي مِني يا عزيزتي، فأنا في عُمر أُمِّك، أو اعتبريني أُختك الكُبرى..

بدا الاصفرار على وجه السَيِّدَة الشابَّة، وصَمَتتْ لبُرهَةٍ، رَبتت السَيِّدَة العَجوز على كتفها برفقٍ أكثر مِن مَرَّة ثُمَّ تركتها، وما هي إلا لحظاتٍ حتى كانت السَيِّدَة الشابَّة قد استجمعتْ أطرَاف شجاعتها، وقالت: لقد كنتُ مُتَزَوِّجة برَجُلٍ آخر مِنذُ أربع سنواتٍ يا عزيزتي، ثُمَّ انفصَلتُ عنه مِنذُ شهور، أمَّا زَوْجي هذا الذي بجواري فقد تَزَوَّجته حديثاً..

ابتسمت السَيِّدَة العَجوز وبدا عليها السعادة؛ لأنَّها ستستمع إلى موضوعٍ ثَريٍ، وقالت: الآن فَهِمت، لذلك فقد كُنتِ مُقيمَةً هُناك مِنذُ أربع سنواتٍ، بينما سافر زَوْجك إلى هُناك مِنذُ ثلاث سنواتٍ فقط..

فأجابتها السَيِّدَة الشابَّة: أجَل..

فقالت العَجوز: ومَتى تَعرَّفتِ على زَوْجك الجَديد؟

ازدادتْ شَحَابة وَجه السَيِّدَة الشابَّة ثُمَّ قالت بتَلعثُمٍ: أنا أعرفه مِنذُ أربع سنواتٍ، إنَّه شقيق زَوْجي السابِق..

وَقَعَ الكُلام على العَجوز كالصاعِقة، فقالت: ماذا؟ كيف يكون ذلك؟ هل انفَصَلْتِ عن زَوْجِك السابِق وتَزَوَّجتِ بأخيه؟
قالت السَيّدَة الشابَّة: أجَل..
صَمَتت العَجوز قليلاً ثُمَّ قالت بحذر: هل لي أن أسألكِ سُؤالاً مُحرِجاً بعض الشيء؟
ابتَسَمت السَيّدَة الشابَّة وقالت: لَسْتِ أوَّل مِن يقول ذلك لي، صِرتُ مُعتادةً على ذلك مِنذُ أن أقْدَمتُ على هذا الزَوَاج..
فقالت العَجوز: لا أقصِد مِن سُؤالي أيَّ سُوء نيَّةٍ تِجاهك صَدِّقيني، لكنَّني فقط أُريد أن أعرِف هل انفَصَلتِ عن زَوْجِك الأوَّل مِن أجْلِ أن تَتَزَوْجي بأخيه؟ أم إنَّكِ انفَصَلتِ أوَّلاً ثُمَّ تقدم إليكِ أخوه طالباً الزَوَاج مِنكِ؟
صَمَتت السَيِّدَة الشابَّة لبُرهَةٍ، فأردَفَت العَجوز قائلةً بسُرعةٍ: اعذريني يا ابنتي مِن فَجّاجَة السُؤال، لكن صَدّقيني أنا لا أعني أنَّكِ على خطأٍ في كلتا الحالتين..
قالت السَيّدَة الشابَّة: لا عليكِ يا عزيزتي، أنا فقط أُحاول أن أستجمِعَ خيوط تفكيري لكي أُبَسِّطَ لكِ الفِكرة، فالأمر مُعَقَّد إلى حدٍ ما..

بدا الارتياح على وجه العَجوز، ثُمَّ استطرَدَت السَيِّدَة الشابَّة وقالت: إن الأمر خليطٌ بين ذلك وذاك، لقد كانت حياتي مع زَوْجي الأوَّل مُضطرِبةُ للغاية، وفي نفس الوقت كنتُ قد وجدت الحنان والاهتمام مِن أخيه، لقد بات الانفصال عن زَوْجي الأوَّل أمراً مَحتوماً؛ بسبب التصاعُد المُستَمر في مُعاملته السيِّئة لي، وكان لا بُد لي مِن أن أطلُبَ الطلاق لأنجو بنفسي، لكنَّني لا أُنكر أن وجودَ أخيه في حياتي حينها كان دافِعاً لي على أن أمضي في خُطواتِ طلاقي دونَ خَوْفٍ أو تَرَدُّدٍ، أو بمعنى آخر، كان وجود أخيه هو الأمل الذي يُهَوِّن عليَّ

لحظات الخِلاف والشِّجار أثناء الطلاق، كان وجوده هو ما جَعَلني لا أشعُر بِثِقَلِ تلك الأيَّام الكئيبة، فهُناك ما هو أجمل بكثيرٍ ينتَظِرُني..

قالت العَجوز: وهل كان زَوْجك الأوَّل يعرِف بأنَّك ستَتَزَوَّجين بأخيه مِن بعده؟

فردَّت السَيِّدَة الشابَّة: بالطبع لا، لقد كان زَوْجي الأوَّل سيِّئ الطَبع يا عزيزتي، لقد كان شَرِساً وعَنِيفاً للغاية، وكانت رُدود أفعاله غير مأمونة الجانِب، لم يكُن ليتفهَّم أنني أطلبُ الطلاق بسببه هو، بسبب سوء مُعاملته لي، بل كان سيظنُّ أنني أخونه..

فقالت العَجوز: ومتى إذاً تعلَّقتِ بزَوْجِك الجَديد؟

أجابت السَيِّدَة الشابَّة: لقد كانت مُصادفةً غريبةً يا عزيزتي، فقد كنتُ أعيش في عذابٍ مع زَوْجي الأوَّل مِنذُ العام الأوَّل، وكنتُ لا أحكي لأخيه شَيئاً عن ذلك عندما كان يزورنا، فقد كنتُ أعتبره مِن أعدائي؛ لأنَّه يتْبَع عائِلة زَوْجي، ولا بُد أنَّه سيكون في جانبه وسيؤازره ضدِّي..

ابتَسَمت العَجوز، فاستَكمَلت السَيِّدَة الشابَّة حديثها قائلةً: مِن الغريب أيضاً أن أخا زَوْجي الأوَّل كان قلَّما يقوم بزيارتنا، فقد كان يعمل في بلدةٍ بعيدةٍ جِداً عن المدينة التي نسكن فيها هُناك، كما أن زَوْجته كانت سليطة اللسان حادة الطِباع، لم أكُن أُحبها مِن أوَّل يومٍ رأيتها فيه، وكانت زيارات أخي زَوْجي الأوَّل إلى مِنزِلنا ثقيلةً جِداً على قَلبي..

ضَحِكَت العَجوز وقالت: يا للهول، أكُنتِ تَمقُتينه ثُمَّ تَزَوَّجتِه بعد ذلك؟

فقالت السَيِّدَة الشابَّة وهي تُبادُلها الضَحِكات: أجَل، لقد كَرِهتُ أخا زَوْجي الأوَّل في الماضي لسَبَبين، أوَّلهما أنَّه أخٌ لزَوْجي الذي أكرَهه، وثانيهما هي تلكَ الزَوْجة الفظيعة، لا أدري كيف تَزَوَّجها..

قالت العَجوز: ومتى إذاً تَغيَّر شُعورُك نَحوَه؟

قالت السَيّدَة الشابَّة: لم يكُن تغيُّراً بقَدْرِ ما هو اكتشاف، لقد اكتَشَفتُ فَجأةً أنَّه شَخصٌ نَبيلٌ وله مِن الصِفات ما يجعله نَقيضاً مُغايراً تماماً لِزَوْجي الأوَّل، كأنَّهما لم يكونا أَخَوين أبداً..

تَعجَّبَت العَجوز وقالت: وكيف كان ذلك الاكتِشَاف؟

قالت السَيّدَة الشابَّة: كان ذلك مِنذُ عامٍ واحدٍ أو رُبما أَقَل، رُبما مِنذُ تسعة شهور، كان ذلك في أيَّام عيد الفِطر، حينها جاء أخو زَوْجي الأوَّل هو وزَوْجته وابنه الصغير ليقضوا معنا عطلة العيد..

قاطعتها العَجوز قائلة: ألديكما أوْلاد؟

انطفَأ وَجْه السَيّدَة الشابَّة ثُمَّ قالت بحُزنٍ: لَدَيَّ ابنةٌ صَغيرةٌ عُمرها ثلاث سَنواتٍ، وهو لَدَيه وَلَدٌ واحدٌ عُمره عام..

فسألتْها العَجوز: وأين هُما الآن؟ مع مَن تركتماهما؟

نَظَرَت السَيّدَة الشابَّة نَحْوَ الأرض ثُمَّ رَفَعتْ رأسها قليلاً والدُموع تَتَرَقْرَق في مُقلَتيها ثُمَّ قالت بصَوتٍ مَبْحُوحٍ قَليلاً: لم يكونا مَعَنا مِن الأَساس، فطليقي اشتَرَط عليَّ أن أتنازَل عن حضانتي القانونيَّة الخاصة بابنتي نَظِير حُصولي على الطلاق، أما زَوْجي فقد طلَّق زَوْجته ولا يزال الوَلَد خاضِعاً لحَضَانتها..

رَبَتت العَجوز على كَتِف السَيّدَة الشابَّة بحنانٍ ثُمَّ قالت: لا عَليْكِ يا حبيبتي، سينصُرك الله ذاتَ يومٍ وسَيَجمَعك بابنتكِ عَمَّا قَريب..

مَسَحَت السَيّدَة الشابَّة بِطَرف أصبَعِها دَمْعَةً كانتْ قد أفلَتَتْ مِن عَينها، ثُمَّ قَالت: آمين..

ابتَسَمَت العَجوز وهي تُحاول أن تُبَدِّدَ الحُزْن عن السَيّدَة الشابَّة وقالت: حَسَناً، ماذا حَدَثَ في ذلك العيد إذاً؟ لم تُكمِلي لي الحِكاية..

ابتَسَمَت السَيِّدَة الشابَّة ابتسامةً تَعْني بها أنَّها تَشكُرها على مُحاولتها لإخراجها مِن لحظات الحُزنِ تلكَ، ثُمَّ قالت: أجَل، لقد كانت عُطلةً طَويلةً وكانت أيَّام عيد، كانت تلك هي المَرَّة الأُوَّلى التي نَتَعَرَّف فيها عن قُربٍ بِبَعضِنا بَعْضاً، أعني نحنُ الأربعة مَعَاً، لقد انكَشَفَ كُلٌّ مِنَّا أَمَامَ الآخرين، وتَفَاجَأَ كُلٌّ مِنَّا بِحَقيقة كُلِّ شَخْصٍ مِنَّا نحنُ الأربعة..
سألتها العَجوز: كيف كان ذلك؟

قالت السَيِّدَة الشابَّة وهي تَبتَسِم: لقد كنتُ أكْرَه تِلك المَرأة بِسَبب سَخافَتها، لكنَّني في هذه المَرَّة رَأيتُ مِنها وَجْهَاً آخرَ أكثَر سُوءاً، كانت تَتَشاجر مع زَوْجها لأتْفَه الأسباب، بل وأحياناً دونَ وَجْهِ حَق، كانت تَعشَق الشِّجار والصوت العالي، وكأنَّها تُريد أن تَفرِضَ شَخصيَّتها على زَوْجها، لم يُثنِها عن ذلك أنَّها ليستْ في بيتها، وأنَّها ضَيْفة في مِنزلٍ آخر غير مَنزِلها، ومَنزل مَن؟ إنَّه بَيْتُ الأخِ الأكْبَر لِزَوْجِها، كانت تَصَرُّفاتها تَنُمُّ على أنَّها ذاتَ شَخْصِيَّةٍ مُتَسَلِّطَة، وكانت كَمَن يُريد أن يفرض تَسَلُّطَه على كُل مَن في المَنزِل، وليس على زَوْجها فقط!
قالت العَجوز: يا الله..
استَطرَدَت السَيِّدَة الشابَّة قائلةً: المُهم أنَّ زَوْجها لم يكُن مُستَكيناً لها، بل كان يوبِّخها في كُلِّ مَرَّة تُخطِئ فيها، لكنَّه كان راقِياً جِداً في طَريقَةِ تَعامُلِه مَعها، كان يوبِّخها بِحَزمٍ وأدَبٍ، لم يُجارِها في طريقتها المُتَدَنِّية، ولم يَهبِط أبداً إلى مُستواها..
قالت العَجوز: عَظيم..
استَكمَلت السَيِّدَة الشابَّة حديثها قائلةً: لكِنَّ ذلك لم يكُن ليُعجب زَوْجي الأوَّل، وكان يقول لي ولأخيه إن على أخيه أن يُهينَ زَوْجته المُتَسَلِّطَة تلك بل وأن يضرِبها، وألا يُعامِلها مُعامَلةً رَاقِيَةً؛ لأنَّها لن تَفْهَم مِن ذلك سُوى إنَّه دَلالةٌ على ضَعفٍ في الشَخْصِيَّة..

علَّقت العَجوز قائلةً: وِجْهَة نَظَر تتطَابَق مع شَخصيَّتِه..
هَزَّت السَيِّدَة الشابَّة رَأسها مُؤمِنَةً على كُلام العَجوز وقالت: بالضَبط. كان زَوْجي الأوَّل يُريد مِن أخيه أن يتَصَرَّف مِثلَه، وأن يُعامِل زَوْجته مِثلما كان يُعامِلني أنا..

رَبتت العَجوز على يَدِ السَيِّدَة الشابَّة التي بدورها أردَفَتْ: لقد مكثوا عندنا أربعة أيامٍ، رأيتُ فيهم شَخْصاً مُخْتَلِفَ الطِباع تماماً عن زَوْجي السَيّئ، لا أُنكر أنَّني كنتُ مَبهورةً بِهِ وبِحُسْنِ أخلاقِه وطِيبِ تَعامُلاتِه.. فقاطَعَتها العَجوز قائِلةً: وهو أيضاً انجَذَبَ إليكِ لأنَّه وَجَدَ فيكِ امرأةً طَيِّبَةً وحَانِيَةً ومُهَذَّبَةً على عَكسِ زَوْجته السَيِّئة الطِباع.. احْمَرَّ وَجْه السَيِّدَة الشابَّة خَجَلاً ثُمَّ قالت: أجَل، هذا ما حَدَث..

ضَحِكَت العَجوز بسَبَب خَجَل السَيِّدَة الشابَّة، فضَحِكَت الأخيرة هي الأُخرى بينما حُمْرَة وَجهها تَزْدَاد، فأمْسَكت العَجوز بِها مِن كَتِفِها وضَمَّتْها إلى صَدْرِها، ثُمَّ قالت: ما أجمل أن يَجِدَ المَرْءُ مِنَّا قَرينَه الذي يبحَث عنه.. أبْعَدَت العَجوز السَيِّدَة الشابَّة عنها بِرِفْقٍ ثُمَّ قالت: لقد كان عيداً جَميلاً إذاً..

ابتَسَمَت السَيِّدَة الشابَّة وقالت: لَيْسَ ذلك تماماً، فقَد كانت الخلافات بين كُلِّ زَوْجين تأخذُ شَكلاً أسْوَأ؛ لأنَّها تَحدُث أمامَ الآخرين، لقد كنتُ مُحْرَجَةً جِداً أمام الضيوف بسبب المُعاملة المُهينة التي أتَلَقَّاها مِن زَوْجي، لم يُحاول أن يَحفَظ كرامتي أمامهم وكأنَّه يتباهى بِقَهرِهِ لي أمامهم، وهو ما جَعَلَني أنفَجِر فيه على مَرأى ومَسْمَع مِن أخيه وزَوْجته في اليوم الأخير..
قالت العَجوز: وهل انفَجَرَ حَبيبكِ في زَوْجته أيضاً آنذاك؟

قالت السَيِّدَة الشابَّة وهي تَبتَسم: لقد كان وَضعهما مُخْتَلِفاً، فخِلافاتهما كانت دائِمةً وعلى وَتيرَةٍ واحِدَةٍ باستمرار، لقد خِلته قد اعتاد ذلك لدرجة أن تكون تلك هي الوَتيرة الطبيعية العاديَّة لِشَكل الحياة بينهما..

فسألت العَجوز: وماذا حَدَثَ إذاً؟

فقالت السَيِّدَة الشابَّة: كما قُلتُ لكِ في أوّل كُلامي، كان كُلّ مِنَّا -أنا وزَوْجي الجديد- هو الدافع الخَفِي لكي يُغَيِّر كُلٌّ مِنَّا مِن حياته المُظلِمة، لقد رأى كُلٌّ مِنَّا في الآخر الحُلم الذي يَتمِنَّاه في قرينه، كما أنَّنا اقتربنا مِن بعضِنا بَعْضاً حينها، لقد كان يحتوي كُلٌّ مِنَّا الآخر كُلَّما اشتَدَّتْ وَطْأَةُ الصِراخ والشِجار بيني وبين زَوْجي أو بينه وبين زَوْجته..

قالت العَجوز: هل تَمَّ الطَلاق لأي مِنكما في نهاية العيد؟

هَزَّت السَيِّدَة الشابَّة رأسها بالنفي وقالت: كَلا، لقد رحلا إلى البلدة التي جاءا مِنها لكنَّني بَقيتُ على اتصالٍ دَائمٍ مع حبيبي الجديد، كانت قِصَّة حُبٍ قَد نَشَأتْ بيننا وَسطَ جَوٍ عاصِفٍ لِكُلٍ مِنَّا، عِشنَا سَوياً ساعاتٍ مِن العِشق والغَرَام عَبْرَ الهاتِف، أدْركنا سَوياً أن كُلَّ واحدٍ فينا قد وَجَدَ أخيراً نِصفَه الثاني الذي يَتوَافق معه، وتعاهدنا بعدها على الزواج..

بَدَت العَجوز مُستَمتِعةً تماماً بِما تَسمَع، ثُمَّ قالت: ثُمَّ أنتُما هُنا الآن عَروسان جَديدان وستُسافران معاً..

ابتَسَمَت السَيِّدَة الشابَّة وقالت: لم يكُن الأمر بهذه السُهولة، لقد كان الانفصال صَعْباً للغاية، وكَثُرَت المُساوَمات هُنا وهُناك، تَنازَل كُلٌّ مِنَّا عن أشياءَ عَديدة كان أغلاها هما ابنتي وابنه..

قالت العَجوز: أجَل، لا يوجد أغلى مِن الأبناء..

استَطرَدَت السَيِّدَة الشابَّة وقالت: كُنَّا نَظُنُّ أنَّ الطَلَاق هو النهاية لأحزاننا، وكُنَّا نَظُنُّ أنَّنا سَنَتَزَوَّج بَعدَ ذلك على الفَوْر بَعدَ مُرورِ ثلاثة أشهُر؛ لِيَهنَأ كُلٌّ مِنَّا بِصُحْبَة الآخر، لكنَّ ذلك لم يَحدُث، فقَد حَدَثَ زِلزالٌ آخر في حياتنا عِندما تَقَدَّم حبيبي ليطلُبني للزواج..

قالت العَجوز: زِلزال؟ أيُّ زِلزال هذا؟

قالت السَيِّدَة الشابَّة: لقد كان رَدُّ فِعْل العائلتين عَنيفاً جِداً، فقَد ظَنَّ الجميع أن كِلانا قَد سَعَى في طَلِب الطَلَاق لكي نَتَزَوَّج، أعني أنَّهم اتهمونا بِطَريقةٍ ما بأن ثُمَّة عِلاقةً كانت بَيْنَنا، وزَادَ الغَمْزُ واللَّمْزُ هُنا وهُناك، واصطنعوا عنَّا حكاياتٍ عَديدة ظُلماً وبُهتاناً..

عَبَسَ وَجْه العَجوز ثُمَّ قالت: مع الأَسَف يَحدُث ذلك، لا أُخفيكِ سِرَّاً.. لقَد تَوَقَّعت أن تقولي لِي ذلك..

امتَعَضَت السَيِّدَة الشابَّة قليلاً ثُمَّ قالت: لن تَتَخيَّلي كَيفَ كانت تُعامِلني أُمِّي، كان طَليقي يَزيد مِن اشتِعال أُمِّي ضِدِّي كُلما حادَثَها عَبْرَ الهاتِف، كان مَدْخَله إليها هو أنَّني امرأةٌ سَيِّئَةُ السُلوك لأنَّني أحبَبتُ أخاه، أمَّا حبيبي فلَم يَسلَم هو الآخر مِن تِحقير أُمِّه له هو الآخر، بِخلاف أنَّ طَليقي قَد قام بُمقاطَعته، بل وشَهَّرَ بِه أمامَ باقِي إخوته وأقربائه، باختصار، صَار كُلٌّ مِنَّا مَنبوذاً ومَلعوناً وَسْط أَهلِه وأمامَ الناس..

بدا الحُزْن واضِحاً على وَجْه العَجوز وقالت: يا لُه مِن مُجتَمعٍ مَريض، لقَد أصبَحتِ مُذنِبَةً بَعد أن كُنتِ ضَحِيَّةً لِسَنَواتٍ عَديدة..

أَطْلَقَت السَيِّدَة الشابَّة تَنهيدةً طَويلةً ثُمَّ قالت: لقد أدرَكنا حينها أنَّ العَار قَد لَحِقَنا في كُلِّ الأحوال، حتى لو قَرَّرنا ألا نَتَزَوَّج فإنَّ ذلك لن يُفيدنا بِشيءٍ، لقَد اعتبرونا كائنين مِن الزُناةِ أو الفاسِقين حتى لو أَقْلَعْنا عن فِكرَة الزَوَاج..

قالت العَجوز: أجَل، أنتِ على حَق..

استَكمَلت السَيِّدَة الشابَّة وقالت: لذلك قَرَّرْنا أن نَتَزَوَّج بِمُفرَدِنا، دونِ أَهْلٍ يَحوطوننا، لقَد تَزَوَّجنا وهَرِبنا مِن كُلِّ ذلك العالَم، كأنَّنا نُولَد مِن جَديدٍ، كأنَّنا نُغَيِّر مِن المُجتمع القاسي الذي لفَظَنَا بِقَسْوَةٍ عن طَريق أن نَترُكه ونَرحَل..

أَخَذَت العَجوز نَفَساً عَميقاً ثُمَّ قالت: يا لَها مِن حكاية، لقد بَدَأتُ أشعُر بالدُوَار..

ابتَسَمَت السَيِّدَة الشابَّة وقالت: فَما بالك إذاً بمَن عاشَتْ تلك الحكاية بتفاصيلها وأيّامها وثَوانيها؟

أَخَذَت العَجوز نَفَساً أَطْوَلَ ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِرأسِها، أَرْخَت يَدَها ثُمَّ نَظَرَتْ نحو زَوْجِها على يمينها، ثُمَّ أشاحَتْ بوجهها عنه، ونَظَرَتْ أمامَها لِتَجِد صابِر وهو يُتابِع كُلَّ حَرَكاتها، فقالت له: لقَد أصابَنِي الصُداع يا بُنَي، هَلاَّ تَكَرَّمْتَ بأن تَشْتَرِيَ لِي فِنجاناً مِن القَهوَة؟

أَوْمَأ صابِر بِرأسِه مُوافقاً وهَمَّ بأن يَنهَضَ مِن مَكانه، التَفَتَت العَجوز نَحْوَ السَيِّدَة الشابَّة وقالت: وأنتِ يا عزيزتي؟ ألا تَحتاجين إلى القَهوَة؟ أَلَم يؤلِمكِ رَأسكِ بَعْدَ سَرْدِكِ لهذه الحكاية الرَهيبة؟

رَدَّت السَيِّدَة الشابَّة وهي تَتَنَهَّد: إنَّه قَلبي الذي يَتَأَلَّم يا عزيزتي..

الفصل السادس

وها هي القَهوَة الرائِعة.. لقد صُنِعَتْ خِصيصى بتأنٍ مِن أجلِكما أنتما.. قالها صابِر وهو يعرِض ما يحمله مِن أكواب للمرأة العَجوز والسَيِّدَة الشابة، ابتسمتْ كُلٌّ مِنهما للأُخرى ثُمَّ تناوَلتْ كُل مِنهما كوباً، كان صابِر يحمِل عدداً كبيراً مِن أكواب القَهوَة، وبعد أن شَكَرته السيِّدَتان، قام بعَرْض باقي الأكواب على زَوْج كلٍّ مِنهما، ثُمَّ عَرَضَ كوباً آخر على الشاب الجالِس على يمين الرجُل العَجوز، تَناوَل الشاب الكوب، وسأله: كيف عَرفتَ أننا نحتاج إلى القَهوَة الآن؟ لم نطلُب مِنك ذلك قَبْلاً!

فأجابه صابِر: إنَّها المَشروب الذي يطلبه الجميع الآن يا عزيزي، لقد كان الإقبال على القَهوَة عالياً جِداً في هذه الجَوْلَة، لذلك فقد قرَّرتُ أن أُحضر بَعضاً مِن الأكواب الزائدة، فأنا أعلم أنَّ هُناك مَن سيَشتَهيها إذا داعَبَتْ رائحتها أنْفه..

ابتَسَمَ الشاب وقال: ولِماذا ذلك؟

فأجابه صابِر: إنَّها الخِبْرَة يا عزيزي، إنَّ هذا الوَقْت هو وَقْتُ القَهوَة؛ فالجميع يُريدون شَيْئاً يُنَبِّههم قَليلاً، لا أَحَد يرتاح في تِلك الحالة التي يكون فيها بين النَوم واليَقظَة، فَوَضْعِيَّة الجُلوس في هذا التوقيت المُتأخِّر لا تُساعِد أحداً على النَوْم..

تَبادَل الجميع الابتسامات، ثُمَّ نَظَرَ صابِر نَحوَ كُرسيه الذي كان جالِساً عليه قبل ذلك فوجَده ما زال شاغِراً، هَزَّ رأسَه كِنايَةً عَن الرِضا، ثُمَّ جَلَسَ وهو يُطْلِق زَفيراً طَويلاً يَدُلُّ على أنَّه قَد أصابَه بَعْضُ الإجهاد. ابتَسَمَ الرجُل العَجوز وقال لصابِر بِحنان: يبدو أنَّك قَد أصابَك الإرْهَاق يا وَلَدي..

فأجابه صابِر: إنَّني مُعتادٌ على ذلك يا سيِّدي..

أوْمأ العَجوز بِرأسه مُؤَمِّناً على كَلام صابِر، ثُمَّ ارتَشَفَ بَعْضاً مِن القَهوَة وأبدَى إعجابه بِمذاقِها، ثُمَّ تَوَجَّه بِبَصَرِه نَحْوَ الشاب الجالِس بِجوارِه، وقال: في أي مَكانٍ تَعْمَل يا بُنَيَّ؟

أطلَقَ الشاب زَفْرَةً طَويلةً ثُمَّ قال: أعْمَلُ وَسْطَ الصَحَراء يا سيِّدي، على مَسافةٍ تَبْعُدُ مِائَةً وخَمسين كيلومتراً عن أقْرَب مَدينةٍ صَغيرةٍ مأهولَة بالسُكَّان..

اندَهَشَ العُجوز وقال: ماذا؟ وهل تُسافِر كُلَّ يَوْمٍ عبْرَ تِلكَ المَسافة الكَبيرة ذهاباً وإياباً كُلَّ يَوْم؟

ابتَسَمَ الشاب وقال: بالطَبْع لا يا سيِّدي، نحنُ نَسْكُنُ هُناك بِموْقِع العَمَل، نَعيشُ في وَحداتٍ سَكَنيَّةٍ خَشَبِيَّةٍ تَمَّ إعدادها خِصيصى للمواقِع الإنشائيَّة البَعيدَة عَن المُدُن..

فقال العُجوز: وماذا تَفْعَل بِطَعامِك في هذا المكان النائي؟ كيف تأكُل؟

فأجاب الشاب: لَدينا طَبَّاخ يقوم بِطَهي الوَجَبَات ونتَناوَلها، تَماماً مِثلما يَحدُث في مُعَسكَرات الجَيْش..
فسأله العُجوز: وهل يُجيد الطَبْخ؟
أجاب الشاب: ليسَ في كُلِّ الأيَّام، لكِن ما باليَّد حيلَة، لا بُدَّ مِن أن نأكُلَ ما يُقدِّمه إليْنا وإلاَّ تَضَوَّرْنا جوعاً..
قال العَجوز: يا لها مِن حياةٍ قاسِيَة..
بدا الاستياء على وَجْهِ الشاب، فقال العَجوز: وماذا تَفْعَل بعد انقِضاء ساعات العَمَل؟ كيف تَقْضي لَيْلَك؟
قال الشاب: إنُّهُ المَلَلُ بعينِه، لا نَجِدُ شَيئاً نَفْعَله سوى تِلكَ الأحاديث المُكَرَّرة بين زُملاء العَمَل، أحياناً نُحاول أن نُمارِس لُعبةً ما، وأحياناً نُحاول أن نَضْحَك على أيِّ شَيء، وأحياناً يُصيبنا بَعْضُ الجُنون، أخالُنا أحياناً قد جُنِنَّا بالفِعْل..

فسأل العُجوز: وماذا لو مَرِضَ أَحَدُكم؟ ماذا لو احتَجْتُم إلى شَيءٍ ما لَيْسَ مُتَوَفِّراً لَدَيْكم بِمَوْقِع العَمَل؟
أجاب الشاب: لا يوجَد حَلٌّ سوىَ أن نُسافِر إلى أقْرَب مَدينة، إنَّها تَبْعُدُ ساعَةً ونِصْف الساعة تَقْريباً أو أَكْثَر عن مَوْقِع عَمَلنا..
صَمَتَ العُجوز لِبُرهَةٍ ثُمَّ قال: إذا كُنتم جَميعاً على هذه الحال، ماذا يَفْعَل المُتَزَوِّجون مِنكُم؟ أين تَعيش زَوْجاتهم؟
فقال الشاب: لا يُمكُننا بالطَبْع اصطِحاب الزَوْجات للعَيْش هُناك وَسْط الصَحَراء..
فقال العُجوز: وما الحَلُّ إذاً؟ هل يَعيش المُتَزَوِّجون في تِلكَ المَدينة البَعيدَة؟
فأجاب الشاب: إنَّه أَحَدُ الحُلول، وقَد حاوَل البَعْضُ أن يفعلوا ذلك بالفِعْل، لكِنَّ السَفَر اليَومي لِمَسافةِ مِائةٍ وخَمسين كيلومتراً ذهاباً ومِثلهم

إياباً كادَتْ أن تَقْتلهم مِن فَرْطِ التَعب والإرْهاق، تَخَيَّل يا سيِّدي أنَّك تَسْتَيقِظ كُلَّ يَومٍ قَبْلَ مَوعِد بدء العَمَل بساعَتَيْن ونِصف على أَقَل تَقدير، ثم تَقضي في العَمَل ما بين الثَماني والتِسع ساعات، ثُمَّ حَوَالَي ساعة ونِصْف للعودة إلى المَنْزِل..

فقاطَعَه العُجوز قائِلاً: وبالطَبْع بَعْدَ كُلِّ هذا المَجْهود الرَهيب لا يُمكِن للمَرْء أن يَرعَى بَيْتَه وأولادَه..

استكمل الشاب قائِلاً: بالطَبع يكون المَرْء حينها كالجُثَّة الهامِدَة، وحتى إن كان قادِراً على أن يتَماسَك، فإنَّ الوَقْت المُتاح المُتبقي لِقَضاء حاجات الأُسرة يَقِلُّ عَن أَرْبَعَ ساعات، إذ لا بُدَّ عَلَيْه أن يَنام ما يَقْرُب مِن ثمانية ساعات؛ ليَتمكَّن مِن أن يَستَيقِظَ مُبكراً في اليوم التالي، وهكذا..

قال العَجوز: إذاً فقد فَشلتْ تِلكَ المُحاوَلات..

قال الشاب: نَعَم، هذا ما حَدَث، وهو ما جَعَل بَعْض زُملائي يُعيدونَ زَوْجاتِهم وأبنَاءهم إلى الوَطَن، والبَعْض الآخَر لم يَسْتَقدِموا عائلاتِهم إلى حَيْثُ هُناك مِن الأَسَاس..

هُنا بَدَا الاستياء على وَجْهِ العَجوز وقال بِصَوْتٍ قَوي: إنَّهم يُعالجون مُشكِلةً ما بخطأٍ أكبَر وأفدَح، إن تَرْك الزَوْجة والأولاد بِمُفرَدهم لَخَطأٌ فادِح..

فسأل الشاب: ولِمَ يا سيِّدي؟

تَنَهَّد العَجوز تنهيدةً طَويلةً ثُمَّ قال: في الحقيقة..

طال صَمتُ العَجوز، ثُمَّ قال: في الحقيقة، إنَّ الأولاد هُم الضَحايا في الحالتَين، سواءً مَكَثوا بالخارج أم عادوا إلى الوَطَن.. مع الأسَف..

تَعَجَّبَ الشاب وقال: يا لها مِن مُفاجأة! كيف يكون ذلك يا سيّدي؟

قال العَجوز: سأقول لك كيف ذلك، فقد شاهَدتُ العديد مِن التَجارُب لكل الحالات هُنا وهُناك، أتدري يا بُنَي، إنَّ الحَيَاةَ خارجَ الوَطَن بالنسبة للأَبْناء

كمَثَلِ الصوبَة الزُجاجِيَّة التي تُزْرَعُ فيها النباتات لِتَحْميها مِن عَوامِل الطَقْس السَيِّئ، رُبما كان التَشبيه غَريباً بَعْضَ الشَّيء، رُبما لا يوجد طَقْسٌ سَيئ على الإطْلاق، لكِنَّه طَقْسٌ غَريبٌ على النباتات، لِنَقُل إنَّه طَقْسٌ غَريب.. نَعَم ذلك التعبير أفْضَل، فَبِرَغم أنَّ البَلَدَيْن -هُنا وهُناك- يَتَحَدَّثُ مواطِنو كُل مِنهما بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ وَاحِدَة، وبِرَغْمِ أنَّ أغلَب مواطِنيهم لَهَم نَفْسُ الدين تَقريباً، إلا أن العادات والأعْراف والأشْياء تَختَلِفُ اختِلافاً يَجعَلُ شَكْلَ الحَياةِ غَريباً، ويَحتاجُ إلى وَقْتٍ كَي يعتاده القادمون الجُدُد.

رُبما يستطيع الكِبار أن يَتأقلموا بَعْضَ الشَّيء، رُبما يَستطيعون أن يَكونوا أَكْثَرَ حِرصاً في تَناوُل الأُمور في بَلَدٍ جَديدٍ وغَريبٍ عليهم، قد يَستطيعون تَقدير الأَخْطار وتَقيِيم الأُمور بِحَيْث لا يَقَع أحَدُهم في مَأزَقٍ أو مُشكِلَةٍ ما، لكِن في كُل الأَحوال يَظَلُّ القادمُ حَريصاً ومُنتَبِهاً طولَ الوَقتِ، يَقولون إنَّ الغَريب يَظَلُّ غَريباً مهما طالَ بِهِ الزَمَن في الغُربَة ومَهما كَوَّنَ مِن صَداقاتٍ، ومَهما اعتادَ الحَياة هُناك، فكُل شَيءٍ يُمكِن أن يَنهارَ في لَحظَة..

صَمَتَ العَجوز لَحَظاتٍ لِيَرْتَشِفَ بَعْضاً مِن القَهوَة، نَظَرَ إلى الشاب وصابِر مَعاً فَوجَدهما مُنتَبِهينَ تماماً إليهِ، ويَنتَظِرانِه لِيَستكمِلَ حَديثَهُ بِشَغَفٍ شَديد، ابتَسَمَ حينها العَجوز ابتسامةً خَفيفَةً ثُمَّ استَكمَلَ حَديثَه قائِلاً: كان ذلك هوَ حال الكِبار، أمَّا الصِغار فهُم لا يُدرِكون أيَّ شَيءٍ مِن ذلك على الإطْلاق، ولذلك فإنَّ الآباء يحرِصون على أن يُحيطوا بأبنائهم كالصوبة الزُجاجِيَّة تَماماً، يَكادُ الأبناء يَنعَزِلون تَماماً عَن الناس، فلا يَروْنَ سوى قِلَّةٍ قَليلَة مِن أبناء الأصْدِقاء، والذين تكون تَجَمُّعاتُهم على فَتَراتٍ مُتَباعِدة أيضاً..

تَدَخَّلَ صابِر في الحوار وقال: مَعَك حَق يا سيِّدِي، كثيراً ما سَمِعْت الزملاء في العَمَل يَشتكون مِن أن أبناءَهم وزوجاتهم قَد أصابهم الملَل والضَجَر مِن الحياة الخاوية الرتيبَة، ولِذلك فإنهم يحاولون بينَ حينٍ وآخَر أن يَتَجَمَّعوا في مَنزِلِ أحدهم أو أن يَخرجوا مَعاً في نُزهَةٍ ما لِيَكْسِروا حِدَّةَ المَلَل..

ابتَسَمَ العَجوز وقال: هذا صحيح، فالمَوَظَّف يعود مِن عمله مُنهكاً ويُريد أن يرتاح، وما أن تأتي عُطلة نهاية الأسبوع فإنَّه يُحاول أن يستغلَّها لِشراء احتياجات الأسبوع، وكثيراً ما تضيع تلك العُطلة فلا يستمتع بها الأولاد، وهو ما يزيد مِن الضغط والكَبْت عليهم..

بدا الشاب مُستاءً مِمَّا يَسمع، فقال: هذا هو الفرق الجوهري بين الحياة في الوطن والحياة في الخارج، إنَّه المُجتمع، نعم إنَّه المُجتمع، فلكُل مِنَّا العديد مِن الأقارِب والمعارِف على أرض الوطن، إنَّها حياةٌ اجتماعيَّةٌ ثَريَّة وواسِعة، وجميع تلك العلاقات لا تخضع لِظروفٍ مُحدَّدة قد تكون سبباً في التعارُف أو التَجمُّع، على عكس زُملاء العمل، فزُملاء العمل لا يُمكنهم أن يتجمَّعوا سَوِيَّاً إلا بِسبب أنَّ ظُروفهم مُتشابِهةٌ تماماً، أعني مَواعيد الحُضور والانصراف والعُطلات وضُغوط العمل، وإذا ترك أحدهم عمله والْتحقَ بعملٍ آخر تختلفُ ظُروفه عن ظُروف العمل الأوَّل، فإنَّه في الغالب يَتعذَّر أن يجتمع بأصدقاء العمل القُدامى إلا مَن رَحِمَ رَبِّي..

فقال العَجوز: أجل، ولذلك فإنَّه لا بُد مِن أن يُحاول المَرء أن يزيد مِن حجم مَعارِفِه أثناء إقامته بالخارج حتى يتسنَّى له أن يُنشئ مُجتمعاً كبيراً ثرياً بالأشخاص، وذلك لكي يضمن أن يجد مَن يلتقيه على المستوى العائلي باستمرار لكي يستطيع أن يُنعش حياة زوجته وأولاده..

فقال الشاب: وهل ينجح الجميع في ذلك؟
أخذ العَجوز نفساً عميقاً ثُمَّ قال: في الواقع لا، هُناك مَن ينجح في ذلك وهُناك مَن يفشل، وفي أغلب الحالات ستجد أنَّ أبناء العاملين بالخارج يغلبُ عليهم طابع الانطواء والتَوَحُّد، فالحياة الاجتماعية هي أحدُ الأمور التي تُشكِّل شخصيَّة الأولاد، وكما قُلتُ لكم فإنَّ حياة الصوبة الزُجاجيَّة التي تعزل الأولاد عن التفاعل مع العالم الخارجي -بالإضافة إلى خواء الحياة الاجتماعيَّة- كُل ذلك يجعل شخصيَّاتهم مُشَوَّهةً إلى حَدٍّ ما وقد تُصيبهم أمراضٌ نفسيَّةٌ مُركَّبة تحتاجُ إلى سنواتٍ مِن العِلاج غير المُباشر..
فقال الشاب: يا للهول، ألهذه الدرجة يتأثَّر الأبناء سَلباً بسبب حياتهم بالخارج؟
قال العَجوز: أجل..

فسأل الشاب: وما هو ذلك العِلاج النفسي غير المُباشر؟ كيف يكونُ ذلك؟
أجابه العَجوز: لا يوجد حَلٌّ سوى أن يتفاعل الأولاد مع المُجتمع الأصلي هُنا بالوطن بالتدريج عند عودتهم، في البداية سيكون مَلحوظاً عليهم أنهم لا يتوافقون أبداً مع أقرانهم، فهُم لا يفهمون لَهجتهم ولا يندمِجون مع طريقتهم المَرِحَة في الحديث أو الأفعال، سيكونون كالغُرباء بين العديد مِن الزُملاء المُتشابهين والمُتوافقين مع بعضِهم بعضاً، وسيشعُر الأولاد العائدون مِن الخارج بأنَّهم لا يستطيعون التواصُل مع أقرانهم بل وأنَّهم مَنبوذون أيضاً! سيحتاجون إلى وقتٍ طويلٍ حتى ينصهر الجليد بينهم وبين زُملائهم، وسيحتاجون إلى عامٍ أو عامين حتى يصبروا عاديين مثل الآخرين..
فقال الشاب مُندهشا: يا الله! عامين مِن العِلاج!

قال العَجوز: لا يوجد حَلٌّ آخر، ويا ليتَ الأمور تَقِف عند هذا الحَدْ، فهُناك مِن الأبناء مَن تنقلب حياتهم عكسياً رأساً على عَقِب، وبعد سنواتٍ طويلةٍ مِن الانغلاق والكَبْت يتحوَّلون إلى النقيض تماماً؛ حيثُ الانطلاق والانفتاح الزائد عن الحَدِّ. إنَّهم يكونون كالقِدْرِ الساخن المُمتلئ بالماء المَغلي الذي تنزع غَطاءه فجأةً، فينطلق البُخار مُندفِعاً في كُلِّ اتجاه، إنَّهم يكونون مَبهورين بالحياة المُنطلقة خارج الصوبَة الزُجاجيَّة، فينهَلون مِن مباهِجِ الحياة المُنفتحة بنَهَمٍ شديد..

قال الشاب: نعم، إن الكَبْتَ يوَلِّد الانفِجار..

فقال العَجوز: هذا ما أعنيه تماماً، فكم مِن الأبناء اتَّجهوا إلى حَفلات الرَقص الماجِنة، ومِنهم مَن تعلَّم تدخين السَجائر، ومِنهم مَن قادَهُ أصحابُ السوءِ إلى إدمان المُخدِّرات، ومِنهم مَن يتلذَّذ بمُطاردة الفتيات وإقامة العلاقات العاطفية، والتي قد تصل إلى حَدِّ الزِنا أيضاً..

فتح الشاب فاه ثُمَّ قال: يا لها مِن مأساة..

قال العَجوز: أمَّا الفتيات فمُصيبتهنَّ أكبَر، فقِلَّة الخِبرَة في التعامُل مع المُجتمع المُنفتح تجعلُ مِنهُنَّ صَيْداً سَهْلاً للغاية للعديد مِن الذئاب، فكم مِن فتاةٍ خدعها الكلام المعسول، واستسلمت لعلاقةٍ عاطفيَّةٍ غيرَ مُتكافئة، وكم مِن فتاةٍ تَزَوَّجتْ عُرفياً مِن غير عِلْم أهلِها، وكم مِن فتاةٍ فقَدَتْ عُذريتها بسبب أن أحد الأنذال قد غرَّر بها بحجَّة الحُبِّ، وكم مِن فتاةٍ صارتْ تُغدِقُ على أحدهم بالمال إمَّا بسبب الابتزاز أو بسبب سذاجتها المُفرطة..

قال الشاب: أيحدُث كُلُّ ذلك بالفعل؟ ما كُلُّ هذه المآسي؟

قال العَجوز: مع الأسف يحدثُ ذلك كثيراً، وعلى الوالدين وتحديداً الأُم أن يكونا يقظين للغاية..

فقال الشاب: لا أدري ماذا أقول، فجميعُنا يُسافر مِن أجل أن يوفِّر حياةً ماديَّةً أفضل لنفسه ولأولاده، فإذا به قد يُسبِّب لهم أمراضاً نفسيَّةً أو قد يدفعهم إلى الانحرافِ دونَ أن يدري! ما فائدةُ الأموالِ حينها إذاً؟

أجابه العَجوز: لكُلِّ اختيارٍ ثَمَن، ولكُلِّ اتجاهٍ مَزايا وعيوب، فالكمال لله وَحْدَهُ يا بُنَي..

فقال الشاب: ونِعْمَ بالله، لكِنَّ الأثمان التي تتحدَّث عنها باهظةٌ جداً..

فقال العَجوز: مِن المُمكِن أن تتجنَّب كُل ذلك، إنَّ عليك أن تتعلَّم مِمَّا حدثَ لِمَن قبلك كي تكونَ مُتيقِظاً طيلةَ الوقت، إنَّ ما حكيته لك مِن مَشاكِل لا بُد أن تُفيدَك أكثر مِن أن تُخيفَك، فأنت الآن لديك فِكرة كامِلة عن كل الاحتمالات سلفاً، لذا لا بُد أن تنتبه إلى أن تمنع وقوع أيَّة مُشكِلة قبلَ حدوثِها..

ابتَسمَ الشاب وقال: حسناً إذاً أنَّني لم أتَزَوَّج بعد، وإلا لكان لَدَيَّ الآن أولاداً سيجعلونني مُتوتِراً وقَلِقاً عليهم طِيلَة الوقت؛ خَشْيَة أن يحدُث لأحدِهم أمراً مَكروهاً مِمَّا حكيته لِيَ الآن..

ابتَسَمَ العَجوز وقال: لم أكُن أدري أنَّني سأُخيفك إلى هذا الحَدِّ..

رَدَّ عليه الشاب وقال: على كُل الأحوال يبدو أنَّني لن أتَزَوَّج، فكيف لي أن أتَزَوَّج وأنا على هذه الحالة مِن الاغتراب المُستَمِرّ، وحتى لو تَزَوَّجت، كيف لي أن أصحبها مَعي إلى هُناك بينما أنا أعمل بعيداً وَسْط الصَحَراء؟

رَبتَ العَجوز على كَتِف الشاب وقال: ومَن أدراكَ أنَّك ستَظَلُّ على هذه الحالة طيلَة حياتك؟ إنَّه ما بين طَرْفَةِ عَيْنٍ وانتباهتها يُغَيِّرُ الله مِن حالٍ إلى حالٍ، وقد يتغيَّر مكان عملك أو تتحسَّن ظُروفك بعد ذلك..

هَزَّ الشاب رأسه موافقاً ولكن على استحياء، فاستكمل العَجوز حديثه قائلاً: إيّاك وأن تُفكر في أن تترُك زوْجَتك وحيدةً إلا لِظروفٍ قاهِرة، إنَّ الزَوْجَة تحتاجُ إلى الحَنان والعَطف باستمرارٍ أكثرَ مِن الرجُل، وقد تنجَذب الزَوْجَة إلى آخر بسبب غياب زَوْجِها الطويل..

فَتَحَ الشاب فاه وقال: ماذا؟

فقال العَجوز: لا تقلق على زَوْجَتك إن كانت صالحةً وسليمة التربيَّة والمَنْشأ، لكِنَّ ليست كُل النِساء كذلك، ولا تَنْسَ أن الغرائِز التي لا يتم إشباعها قد تضغَط على المرأة فتستلم دونَ وَعْيٍ إلى مَن يُشبِعها..

قال الشاب: ماذا تعني يا سيِّدي؟ عن أيَّة غرائِز تتحدَّث؟

قال العَجوز: غَريزَةُ الحُبِّ.. وغَريزَةُ الجِنْسِ..

صاح الشاب: الجِنْس؟

فقال العَجوز: أجل، فقد تنجذب المرأة إلى رجُلٍ آخر بسبب غياب زَوْجها؛ بَحثاً عن الحَنان والحُب، وقد تَضطرُّ دونَ وَعْيٍ مِنها إلى أن تُشبِعَ احتياجاتها الجِنْسيَّة مع آخر..

قال الشاب وهو جحظت عيناه: أمِنَ المُمكن أن يحدُث ذلك؟

قال العَجوز: لا تنزعج هكذا يا بُنَي، فالزَوْجَة الصالحة التي تحفظ نفسها في غياب زَوْجِها لن تنجرِف أبداً إلى ذلك الطريق مهما كانت المُغريات، ومهما ضغطتْ عليها غَرائِزها، والزَوْجة الضعيفة قد تستسلم لِغَرائِزها حتى وإن كان زوجها موجوداً معها في نفسِ البَلَد..

فقال الشاب: إذاً فالموضوع يَخُصُّ الزَوْجَة السَيِّئة يا سيِّدي، فالزَوْجَة السَيِّئة غيرُ مَأمونةِ الجانِب في كُلِّ الأحوال..

قال العَجوز: كَلاًّ، ليست الزَوْجَة السَيِّئة فقَط. لقد قُلتُ لك الزَوْجَة الضعيفة. وأعني بالضَعْف هُنا ضَعْف النَفْس. فقد تكون الزَوْجَة رائِعةً ومُؤَدَّبةً، لكِنَّها عِندَ غيابِ زَوْجِها وتحت ضُغوط احتياجاتها قد تُخطِئ. وكم مِن زَوْجاتٍ وَقعن في الحُبِّ أو الخَطيئة بوَعيٍ أو دونِ وَعيٍ..

هَزَّ الشاب رأسه يميناً ويساراً مُعبِّراً عن استيائه، وقال: سُحقاً لِفِكرة العمل بالخارج، ما فائدة كُلِّ ذلك إذا كان هُناك احتمال كبير لأن تنحرف الزَوْجَة ويضيع الأولاد؟

فقال العجوز: والزَوْج أيضاً أحياناً يضيع هو الآخر..

اندهشَ الشاب وقال: ماذا؟ وكيف يحدُث ذلك؟

قال العَجوز وهو يبتسِم: تماماً مِثلما يحدُث للمرأة في غياب زَوْجها، قد ينحرف الزَوْج أيضاً أثناء إقامته بالخارج بسبب غياب زَوْجته. فالزَوْج هو الآخر لديه مِن الغَرائِز ما تحتاج إلى الإشباع أيضاً..

بدا الانزعاج على وَجْهِ الشاب، فاستكمل العَجوز موضِّحاً: قد يلجأ الرَجُل إلى فتيات الدعارة ليقضي منهنَّ وَطَره، وقد يتزَوَّج زَوَاجاً مُؤقَّتاً مِن أُخرى، وهُناك مَن يتحوَّل إلى شاذٍ جنسيّاً..

ضَرَبَ الشاب يديه كَفّاً بِكَف، وقال: ماذا بَقِيَ إذاً للمرءِ مِنَّا في هذه الحياة؟

فقال العجوز: بَقِيَ أن تكون مُتَنَبِّهاً إلى كُلِّ شَيء، وأن تُحسِن الاختيار، وأن تَتَّقي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ دائِماً. فالله خَيْرٌ حافِظاً وهوَ أرْحَمُ الراحِمين..

قال الشاب: ونِعْمَ بالله..

صَمَتَ الجميع للحَظاتٍ وكأنَّهم جميعاً يستعيدون ذلك الحديث داخل رؤوسهم، ثُمَّ نَظَرَ العَجوز إلى ساعةِ يَدِه وقال: لقَدْ مَرَّتْ ساعتان على موعِد إقلاع الطائرة الأصلي!

فرَدَّ صابِر: أجل يا سيِّدي..

فقال العَجوز: حاوِل أن تستفسِرَ مِن أحَدِهم بالخارج عن حال الطائِرة يا بُنَيّ..

فقال صابِر: سأفعل ذلك يا سيِّدي.. لا تَقْلَقْ..

الفصل السابع

أنهى صابِر جولةً جديدةً مِن جولات توزيع المشروبات، ثُمَّ توجَّه عائداً إلى حيث يجلس الرَجُل العَجوز، رفع العَجوز رأسه حينما لمح صابِر قادماً مِن بعيدٍ كأنَّه يتعجَّل مَعرفة أيَّة أخبارٍ جديدةٍ عن إقلاع الطائرة، ففهم صابِر ذلك ولم ينتظر حتى يقترب مِن مكانه، بل صاح مِن بعيدٍ موجِّهاً كلماته نحوَ العَجوز: لا توجد أخبارٌ يا سَيِّدي، ما زال الوضع على ما هوَ عليه ولا أحد يعلم متى سيتم إصلاح الطائرة!

انتبه الجميع إلى ما قاله صابِر، فسَرَتْ هَمْهَماتٌ بين الجميع هُنا وهُناك: دلالةً على الضيق والاعتراض، وحينها استوقف أحدهم صابِر ليسأله عن مصدر تلك الأخبار، ثُمَّ سأله آخر عمَّا رآه خارج الصالة، ثُمَّ ناداه أحدهم مِن بعيدٍ لكي يستفسر عن ماهيَّة الموجودين بخارج الصالة، وهل يوجد أحدٌ ما يتْبَع شركة الطيران أم إنَّهم قد رحلوا؟

كان صابِر سعيداً للغاية بتلك الأسئلة، يا له مِن شخصٍ مُهم للغاية، إنَّ جميع هؤلاء الرُّكَّاب يروْن الدُنيا مِن خلال عينيه هو فقط، فهو هَمْزَةُ الوَصْل بينهم وبين ذلك العالم الذي يقع خارج تلك الصالة الضيِّقة التي حُشروا فيها رغماً عنهم.

بدا صابِر وكأنَّه العليم ببواطن الأمور وأخذ يُجيب عن أسئلة المُسافرين الواحد تلوَ الآخر، وكأنَّه أحد الخُبراء في القوانين والطيران، كان يعلم أنَّه لا يعرف الشيء الكثير، رُبما لم تكُن لديه معلومةٌ ذات أهميَّة على الإطلاق، لكنَّه كان لا بُد له مِن أن يقوم بتأليف بعض المعلومات والأخبار مِن وَحْي خياله لكي يبدو عليه المعرفة والأهميَّة وَسْط الجميع.

جلس صابِر على مِقعده المُعتاد مواجهاً للرجُل العَجوز، كان الضيق بادياً على وجه العَجوز بينما استسلم الشاب الذي عن يمينه إلى غَفوَةٍ قصيرةٍ، تنهَّد صابِر وحاول أن يُغمِض عينيه قليلاً هوَ الآخر، يُدرك أنَّه مُرْهَقٌ ومُتْعَبٌ لكِنَّ عقله الذي لا يتوقَّف يمنعه مِن النَوْم، وما أن تتسرَّب إلى أُذنيه أيَّة أصواتٍ مِن هُنا أو هُناك حتى يفتح عينيه مُجدداً، يبدو أنَّه لا يوجد أملٌ في النَوْم، فقد تكرَّر ذلك الأمر مرتين خلال ثلاثة دقائق فقط!

قرَّر صابِر أخيراً ألا ينام، حاول أن يقوم بفتح عينيه على أقصى اتساعٍ لهُما مُحاولاً أن يتنبَّه قليلاً، مَرَّت لحظاتٌ قليلة فإذا بالمرأة العَجوز تقطعُ حالة الصَمْتِ التي تُخَيِّم على المكان، انتبه إليها صابِر وهي تسأل جارتها الشابة فجأةً: هل فكَّرتِ أن تُمارسي عملاً ما يا عزيزتي أم إنَّكِ تُفضِّلين أن تكوني ربَّة منزلٍ فقط؟

ابتسم صابر بسبب ذلك السؤال المُفاجئ. إن المرأة العجوز فُضوليةٌ وثرثارةٌ للغاية ويبدو عليها أنها لا تُعجزها الحيلة في أن تبدأ حديثاً مع أي أحدٍ في أي وقتٍ. لمحت عيناهُ ابتسامةً مُماثلةً على وجه زوجها العجوز الجالس أمامه. أدرك صابر أن ما يدور برأسيهما هو نفسُ الانطباع عن المرأة العجوز التي لا تملُّ من التلصُّص على حياة الآخرين.

بدا أن الزوجة الشابة لم تكُن لديها إجابة مُحددة. فنظرت إلى زوجها الجالس على يسارها ثُم توجَّهت مرةً أُخرى ببصرها نحو المرأة العجوز وقالت بترددٍ: لم أُفكِّر في هذا الأمر قبل ذلك..
فقالت المرأة العجوز: ما هي الشهادات الدراسية التي تحملينها؟
فأجابت المرأة الشابة: إنني أحمل شهادةً جامعية في المُحاسبة. وكنتُ قد عملتُ لبضعة شُهور منذُ سنوات..
فقالت العجوز: هذا أمرٌ رائع. يُمكنك إذاً أن تجدي عملاً بسهولةٍ في الأماكن التي تتعامل مع النساء..
فقالت المرأة الشابة: لا أدري.. لم أتخيَّل تلك المسألة..

فتدخَّل زوجها الشاب قائلاً: رُبما تكون الفُرص مُتاحةً بالفعل. لكن المُشكلة ستكون في عدم مُناسبة ظُروفنا الخاصة..
فقالت العجوز: لكن الفراغ يكون قاتلاً..
فقال الزوج: أي فراغ؟ إذا رزقنا اللهُ بالذُرِّية التي نتمناها فلن يكون هُناك أي وقتٍ فارغ..
قال ذلك وهو يبتسم ويقترب بكتفه نحو زوجته الشابة. فبادرته هي الأُخرى بأن تربت على فخذه وهي تبتسم..

فقالت العجوز: وهل اتفقتُما على أن تُنجبا أولاداً الآن أم أنكُما ستنتظران لبعض الوقت؟

قالت الزوجة الشابة: لقد قرَّرنا سوياً أن نُسرع في الإنجاب على الفور يا عزيزتي، وندعو الله أن يمنحنا ما نتمنَّاه، لقد ضاع منا عُمر طويل، ولا نُريد أن نُضيع سنواتٍ أُخرى..

هزت العجوز رأسها بالموافقة وقالت: أدعو الله أن تنالا ما تتمنَّيانه، فالمال والبنون زينة الحياة الدُنيا..

فقالت المرأة الشابة: إننا نُريد أن نبدأ حياةً جديدةً بكُل ما تعنيه الكلمة، نُريد حياةً مُختلفةً تُنسينا كُل ما مضى وكُل ما خسرناه، إننا نحلم بأن تكون لنا حياة مُستقرَّة هُناك لنا ولأولادنا الجُدُد..

ابتسمت العجوز ثُم قالت: الاستقرار أمرٌ مرهونٌ بإرادة الله..

فقالت المرأة الشابة: ونعم بالله، لكننا نبغى من سفرنا هذا أن يكون لنا وطنٌ جديدٌ بديلاً عن وطننا الذي لفظونا منه..

فقالت العجوز: وطن بديل؟ هل تقصدين أنك لن تعودي إلى الوطن قريباً خلال الأعوام القليلة القادمة؟

هُنا قال الزوج الشاب: لن نعود خلال الأعوام القليلة القادمة ولا الأعوام البعيدة، لا نُريد العودة أبداً، سنظلُّ هُناك حتى آخر العُمر..

قالت العجوز وهي يبدو عليها الاندهاش: وهل ذلك مُمكن؟

فقال الشاب: ولم لا؟

فتوجَّهت المرأة العجوز بوجهها نحو زوجها الجالس على يمينها، وربتت على فخذه وقالت: هل سمعت ذلك؟ أيُمكنُ أن يظلَّ الزوجان والأولاد هُناك مدى الحياة؟

فقال العجوز وهو ينظر إلى الزوجة الشابة وزوجها: بالطبع لا، فالقوانين هُناك لا تسمح بوجود الأبناء إذا صار عُمرهم ثمانية عشر عاماً..
بدت الدهشة على المرأة الشابة وزوجها، فقال الزوج الشاب: حقاً؟ أتلك هي القوانين بالفعل؟ كيف يكون ذلك؟ لا أرى أي منطق في ذلك! ماذا تفعل الأُسرة إذاً عندما يبلغ الابنُ الأكبر ثمانية عشر عاماً؟ هل عليهم مُغادرة البلاد أم ماذا؟
فأجابه العجوز: لا يا عزيزي، إنَّ من يتوجب عليه مُغادرة البلاد هو الابن الأكبر فقط، وذلك عند بلوغه السنِّ القانونية تلك، أما الباقون من الأبناء فلا يحتاجون إلى المُغادرة ما دام أنهم ما زالوا دون ذلك العُمر..

بدا الاستياء على وجه الزوج الشاب، وقال: وكيف لفتىً عاش عُمره كُله هُناك أن يعود بمُفرده إلى الوطن؟ إلى أين سيذهب وكيف سيعيش؟
فقال العجوز: إن ذلك لا ينطبق على الابن الأكبر فقط، بل ينطبق على كُلِّ أخٍ له قد يصل إلى تلك السنِّ أيضاً..
فقال الزوج الشاب: ماذا يفعل الأهل إذاً في تلك الحالة؟
فقالت المرأة العجوز: إما أن يُقيم الابن عند أحد الأقارب هُنا، وإما أن تصحبه أمه وتعود به إلى هُنا معه..

تبادل الزوجان الشابان النظرات ثُم قالت الزوجة الشابة وهي مُكتئبة: لكن الحل الأول غير مُتاحٍ لنا، لا يوجد لدينا أقرباء يُمكننا أن نعتمد عليهم في ذلك الأمر..
وقال الزوج الشاب: كما أنني لا يُمكنني أن أترك زوجتي لتعود بمُفردها إلى هُنا..

ضحك الرجُل العجوز وقال: ما هذا الذي تقولانه؟ هل تعنيان ما تقولانه حقاً؟ إن ما تتحدَّثان عنه هو أمرٌ بعيدٌ جداً! إنكما تتحدَّثان عن أمرٍ قد يحدُث بعد ثمانية عشر أو تسعة عشر عاماً من الآن! أتدريان ماذا يعني ذلك؟

صمت الزوج الشاب وهو لا يُدرك بم يُجيب، تبادل النظرات مع زوجته الشابة فاستأنف العجوز حديثه وكأنه يوضح كلامه أكثر، وقال: أعلم أن التخطيط هو سرُّ النجاح في الحياة، لكن هذا التخطيط لا بُد أن يكون عقلانياً وفي حدود الأمور المعقولة التي يُمكننا أن نتحكَّم فيها، أما تلك الأمور الغيبية أو التي يستحيل التحكم فيها فلا بُد أن نتركها لتدابير الله عز وجل..

تناول العجوز قارورةً للمياه وارتشف منها شيئاً قليلاً، ثُم أردف: ما الذي يجعلك مُتأكداً أنك قد تعيش حتى ذلك اليوم الذي تحكي عنه بعد تسعة عشر عاما من الآن؟ أطال الله في عُمركما بالطبع، لكن الأعمار بيد الله.. بدا بعض الخجل على الزوجين الشابين، فاستكمل العجوز قائلاً: دعكُما من العُمر والصحة، ألم تُفكرا في أمرٍ آخر؟ ما الذي يجعلكما مُتيقنين من أنكما ستعيشان هُناك تلك السنوات الطويلة؟ إن وجودكما هُناك مرهونٌ باستمرارية العمل والتوظيف هُناك، ألم تُفكرا يوماً بأنه قد تحدُث مُشكلة ما قد تجعلك يا عزيزي مُضطراً لأن تترُك العمل وتُغادر البلاد؟ أو أن يستغنوا عن خدماتك لأي سببٍ قد لا يكونُ مُتعلقاً بك أنت شخصياً؟

هزَّ الزوجان رأسهما ببُطء كنايةً عن الموافقة، فتدخَّلت الزوجة العجوز قائلةً: يقولون في بلدتنا الريفية إن الحديث عن الأمور المُستقبلية بتلك

الثقة واليقين هو فألٌ سيئ، لم التعجُل في الحديث عن أشياء قد تحدُث بعد عشرات السنين؟
ابتسم الزوج الشاب ابتسامةً صفراء، وكأنه يُريد أن يقول إنه قد سمع ما يكفيه من زوجها العجوز، ولا داعيَ لتكرار ذلك التوبيخ..
عندئذٍ قالت الزوجة الشابة: نعلم أن المُستقبل كُله بيد الله ولا أحد يعلم الغيب..
ثُم التفتت إلى زوجها وقالت وهي تربتُ على يديه: على الأقل عرفنا أنه إذا سارت كُلُّ الأُمور على ما يُرام فإن أقصى أمانينا هو أن نعيش ثمانية عشر عاماً مع أولادنا في سلام..
ابتسم الزوج وهو يقول: إنه زمنٌ طويلٌ على كُلِّ حال..
فقال الرجُل العجوز: أكُلُّ ذلك من أجل أنكما لا تُريدان العودة إلى الوطن؟
فقالت زوجته العجوز: إنهما يُريدان أن يهربا من ضُغوط عائلتهما ويُنشأ حياةً جديدةً هُناك..

فقال الرجُل العجوز وهو يجول ببصره بين زوجته وبين الرجُل الشاب وزوجته الشابة: ومن أدراكما أن تلك الظروف سوف تستمرُّ طويلاً؟ من يضمن أن يظلَّ الوضع على ما هو عليه إلى أن يمُرَّ ثمانية عشر عاماً؟ رُبما يتغيَّر كُل شيءٍ بعد عامٍ واحدٍ أو عامين أو رُبما خمسة أعوام، الأيام تمضي والأعمار تنقضي والنفوس تتغيَّر والظروف تتبدَّل، ورُبما من تخشون لقاءه هُنا قد يموت أو يمرض أو يهدأ ويعود فيطلب لقاءكما.. تلك هي الدُنيا يا عزيزيَّ..
قالت الزوجة الشابة: أجل يا سيدي، كُلُّ شيءٍ قابلٌ للتغيير..
وقال الزوج الشاب: نتمنَّى أن يحدُث ذلك التغيير بالفعل وتهدأ الأمور، وإلا ظللنا هكذا مُغتربين منبوذين..

هزَّ العجوز رأسه يميناً ويساراً مُعرباً عن عدم رضاه.. ثُم سادت فترةٌ من الصمت بين الجميع، وفجأة رفعت الزوجة الشابة رأسها وكأنها تذكَّرت شيئاً وقالت: هل تعرَّضتُما لنفس مُشكلة الأولاد تلك أنتُما أيضاً؟ ماذا فعلتما حينما وصل أبناؤكما إلى تلك السنّ القانونية؟
نظرت العجوز إلى زوجها فتبادلا الابتسام ثُم أشاحت بوجهها نحو الزوجة الشابة وقالت: لقد بدأت مشاكلنا مع الأولاد قبل ذلك بكثير، لقد اضطُررنا إلى أن نُعيد الأولاد إلى الوطن وهُم في سنِّ الرابعة عشرة..

اتَّسعت حدقتا السيدة الشابة وزوجها وقالا في وقتٍ واحدٍ: ماذا؟!
فقال الرجُل العجوز: لقد كانت تلك هي بدايات فترة المُراهقة للأبناء، وكانوا قد كرهوا البقاء بالخارج؛ حيث تلك الحياة المُنغلقة الرتيبة المُملَّة، وكانت حياة الوطن بالنسبة لهم حُلما رائعاً حيث الحياة الثرية الصاخبة..
فقاطعه الزوج الشاب وقال: وهل تركتماهم ليرحلوا بمُفردهم؟
فأجاب العجوز: بالطبع لا، لقد قاومنا رغباتهم بشدةٍ لخوفنا عليهم، واستمرت تلك المُقاومة سنةً كاملةً، إلى أن حدث لنا مكروهٌ اضطرّنا إلى أن نستجيب إلى رغباتهم رغماً عنا..

فقال الزوج الشاب: خيراً؟ ماذا حدث؟
قال العجوز: لقد فصلوني من عملي فجأة، وكان ذلك في مُنتصف العام الدراسي، لقد كانت أياماً عصيبة..
فقال الزوج الشاب: هل تعني أنك اضطُررت إلى أن تعود ومعك الأُسرة إلى أرض الوطن؟ أكان ذلك هو السبب؟

تنهّد العجوز بشدةٍ ونظر إلى زوجته ثُم عاد لينظُر إلى الزوج الشاب وقال: كانت من أسوأ أيام حياتي على الإطلاق، لقد كان لدينا مسكن جميل، وكُنا قد اعتنينا بتأثيثه وكأنه منزل العُمر، كان كُلُّ ما فيه حديثاً وثميناً في نفس الوقت، كما كان لدينا سيارة فارهة، لقد كانت حياتنا رغدةً ومُستقرةً، ولم نكُن نتخيَّل أبداً أن يحدُث ذلك الانهيار المُفاجئ..

فقال الزوج الشاب: يا للهول! وماذا فعلتما إذاً؟ ألم تبحث عن عملٍ آخر؟

فأجاب العجوز: كانت الشركة التي أعمل بها قد سمحت لي بالبقاء لمُدة شهرين فقط كي أوفِّق أوضاعي كما يحلو لي، وبعدها كان عليَّ أن أُغادر البلاد: لكي تزول المسؤولية القانونية عن كاهلهم..

قال الزوج الشاب: شهران؟ فقط شهران؟

قال العجوز: أجل، كانت المُهلة المُتاحة لي شهرين فقط، وقد حاولتُ جاهداً أن أجد عملاً آخر، لكنني اكتشفتُ أن الأمر ليس بتلك السُهولة، فإجراءاتُ البحث والتقييم والاختبارات الشخصية تحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ ومُفاوضاتٍ عديدة..

قال الزوج الشاب: أجل، إن فترة الشهرين ضيّقة للغاية..

فقال العجوز: وبعد أن انقضى شهرٌ ونصف، كان لا بُد لنا من أن نستعد للرحيل، وبا لها من استعدادات..

تنهّد العجوز ثُم تناول بعض الماء ونظر إلى الفراغ أمامه وقال: كانت هُناك ثلاثة أُمور يجب عملها في وقتٍ واحد، كلا.. كانت أربعة أُمور..

انتظر الزوج الشاب وزوجته في صمتٍ، فقال العجوز: كان الأمر الأول هو أن نقوم بإعداد المُستندات اللازمة لنقل الأولاد من المدارس هُناك إلى المدارس هُنا، وكان ذلك الأمر صعباً للغاية، وخُصوصاً أننا كُنا في مُنتصف العام الدراسي..

بدا الاستياء على وجه الجميع، فاستكمل العجوز حديثه قائلاً: وكان علينا بعد ذلك أن نبيع الأثاث، وأن نبيع السيارة، وأن نُغلق كل الحسابات البنكية.. تلك هي الأُمور الثلاثة الأُخرى..
فقالت العجوز: كان الجميع يستغلُّون حاجتنا وضيق الوقت المُتاح للرحيل، لقد بعنا الأثاث كُله بثمنٍ بخسٍ، لقد كان كُلُّ شيءٍ جديداً ورائعاً، لقد بكيتُ بشدةٍ حُزناً على تلك الأشياء، كان قلبي يتمزَّق وأنا أراهُم يحملون الأثاث والأجهزة الكهربائية، لقد دفعنا ثمناً باهظاً لاقتناء تلك الأشياء الجميلة، ثُم بعناها بأقل من رُبع ثمنها الأصلي..

فقال الرجُل العجوز: لقد كان الشُعور بالقهر حينها مُميتاً وقاتلاً، لقد أمضينا ليالينا الأخيرة ونحنُ نيامٌ على الأرض، كنتُ أنتظرهم حتى يناموا لكي أبكي أنا أيضاً من شدة حُزني وإحساسي بالهوان، فقد كنتُ أُحاول أن أبدو مُتماسكاً أمامهم..
قالت العجوز: لقد حدث نفس الشيء بالنسبة للسيارة، لكن خسارتنا فيها كانت أقل نسبياً من خسارتنا في الأثاث..
صمت الجميع لبُرهة ثُم سأل الزوج الشاب: وكيف عُدتم إلى هُناك بعد ذلك يا سيدي؟

فأجاب الرجُل العجوز: لقد تحصلتُ على وظيفةٍ جديدةٍ بعد رحيلنا بشهرين، وهو ما مكنني من السفر إلى هُناك مُجدداً..
فقالت الزوجة الشابة: وماذا فعلتم في الأولاد إذاً؟ هل تمكنتم من تغيير مدارسهم مرة أُخرى؟

ابتسمت السيدة العجوز وقالت: لا يُلدغ المُؤمن من جُحرٍ مرتين، لقد علمتنا تلك التجربة القاسية أشياء عديدة، لذلك فقد قُمنا بتغيير نمط حياتنا تماماً، لقد غيَّرنا كُل شيءٍ عن ذي قبل..
قال الرجُل العجوز: لقد كانت خسارتنا كبيرةً جداً في كُل شيء، كما أن فترة الأربعة شُهور التي قضيتها دون عملٍ كانت قد أثَّرت كثيراً على مُدخراتنا، تلك المُدخرات التي اكتشفنا أنها لا تتناسب مع عدد السنوات الطويلة التي قضيناها ونحنُ مُغتربان بالخارج، لذلك فقد أقمتُ بالخارج بمُفردي بينما مكثت زوجتي مع الأولاد بأرض الوطن حتى أنهوا دراستهم الجامعية، وكانوا يقومون بزيارتي هُناك مرتين كُل عامٍ عندما تحل أوقات عُطلات المدارس والجامعات..

قالت الزوجة العجوز: لقد بقينا على ذلك الحال حوالي سبع أو ثماني سنواتٍ، وقد قُمنا بتأثيث مسكنٍ بسيطٍ يكفي احتياجات زوجي وكذلك احتياجاتنا المُؤقتة عندما كُنا نزوره في العُطلات، لقد تعلمنا الكثير من التجرُبة السابقة، وكان لا بُد لنا من أن نهتم بالادخار بشكلٍ أكثر من السنوات السابقة التي كُنا فيها مُسرفين بحق..
قال الزوج الشاب: يا لها من تجرِبةٍ قاسيةٍ..
فقال الرجُل العجوز: رُبَّ ضارةٍ نافعة، لقد حَسَمت تلك التجرُبة بالنسبة لنا أمراً مهمّاً لطالما اختلفنا فيه نحنُ والأصدقاء..

ابتسمت زوجته العجوز وكأنها تعرفُ ماذا سيقول زوجها سلفاً، فابتسم هو الآخر واستكمل حديثه قائلاً: كُنا في بداية حياتنا بالخارج ننتقد هؤلاء الذين يحرمون أنفسهم من كُل شيءٍ من أجل أن يوجهوا أغلب أموالهم نحو الادخار، كانت مساكنهم دون المُستوى اللائق بأوضاعهم الاجتماعية، وكذلك

كانت سياراتهم وملابسهم والأماكن التي يتنزَّهون فيها هُم وأولادهم، كُنا ننتقدهم لأنهم يعيشون كالمساكين الفُقراء، حيثُ لا صوت يعلو فوق صوت المال والادخار..

صمت العجوز للحظاتٍ وما زال الجميع مشدودين إلى ما يقول، فاستكمل حديثه وقال: أتدرون لماذا كُنا ننتقدهم؟ لقد كان هؤلاء المُقترون على أنفسهم يقولون إنهم يؤجِّلون استمتاعهم بأموالهم التي ادَّخروها حتى يعودوا إلى أرض الوطن، فلا داعي لأن يكون لديهم مسكن جميل أو أثاث رائع، ولتكُن كُل تلك الأشياء في الوطن فقط.. لم نقتنع أبداً بوجهة نظرهم؛ ليس لأنهم يعانون من الحرمان بأيديهم فحسب، بل إنهم قد لا يتمتعون بأموالهم أبداً، فمنهم من قد يموت قبل أن يلحق بفُرصة التمتُّع بالأموال، ومنهم من قد يُصيبه المرض فلا تُسعفه صحته في أن يستمتع بأي شيءٍ..

قالت المرأة العجوز: كُنا نُطلق على هؤلاء أنهم يُقيمون مُعسكراتٍ للادخار، يُسافرون وكأنهم في مُهمةٍ عسكريةٍ للادخار فقط..

فأردف الرجُل العجوز وقال: لقد أصبحت تلك هي الصفة الغالبة لبني جلدتنا في الغُربة، وقد أسهم ذلك في أن ينظر الآخرون إلينا بنظرةٍ أقلَّ في المُستوى من الجنسيات الأُخرى..

فقال الزوج الشاب: وهل اقتنعتما بصحة وجهة نظرهم بعد ذلك؟

فأجاب الرجُل العجوز: بالطبع لا، لم أقتنع أبداً بفكرة تأجيل المُتعة، لكنني لا أُنكر أنني كنتُ أحسدهم خلال تلك الشُهور العصيبة التي كنتُ فيها بلا عمل، فقد كنتُ أندم كُلَّ يومٍ على كُلِّ ما أنفقته ببذخٍ على تجهيز مسكننا هُناك، كنتُ أُحدِّث نفسي وأقول لو أنني كنتُ اقتصدتُ في هذا الشيء أو استغنيت عن ذلك الشيء الآخر لكان لدي ما يكفيني من الأموال التي تُعينني على مصاريف الحياة إلى أن أجد عملاً جديداً..

ابتسم الشاب وقال: إذاً فقد اقتنعت بأنهم على صواب..

فقال الرجُل العجوز: لم أقُل ذلك، لقد انتابني ذلك الشُعور أثناء الأزمة التي مررت بها فقط، لكنني لم أكُن لأتحمَّل أبداً أن أعيش حياة المساكين تلك، لم أكُن أبداً لأصنعها لنفسي وبيدي بينما أنا مُقتدرٌ مادياً..

قالت المرأة العجوز: إن خير الأُمور الوسط..

فأمَّن زوجها على كلامها قائلاً: بالضبط؛ فالتقتير الشديد مكروهٌ كما أن الإسراف مكروهٌ هو الآخر أيضاً، وما زلت أنتقد هؤلاء المُقترين على ما يفعلونه بأنفسهم وأولادهم من تضييقٍ للحياة، لكن في نفس الوقت فإن كُرهي لذلك لا يعني أن نعيش في إسرافٍ وبذخ، فقد يحدُث فجأةً ما يُطيح بكُل ذلك في لحظةٍ ونفقد كُلّ شيء..

هزَّ الزوج الشاب رأسه وقال: معك حق..

ثُم نظر إلى زوجته بجواره وقال: لكن حالتنا نحن مُختلفة عن كُلِّ ذلك.. أليس كذلك يا حبيبتي؟

ابتسمت زوجته الشابة وقالت: بلى.. فنحن في كُلِّ الأحوال لن تكون لنا حياة أُخرى تنتظرنا في أرض الوطن..

ضرب الرجُل العجوز كفاً بكفٍ وقال وهو يضحك: لا فائدة.. كأننا لم نقُل شيئاً تتَّعظان منه..

فضحك الجميع ضحكةً دافئةً، وقال الزوج الشاب: أعِدْ ما قُلته من البداية يا سيدي.. ففي الإعادة إفادة، ورُبما قد نفهم شيئاً هذه المرة..

ضحك الجميع من جديد.. وكأن لسان حالهم جميعاً يقول: إن شرَّ البلية ما يُضحك..

الفصل الثامن

أخذ صابر يتأسفُ بشدةٍ لتلك المرأة وزوجها بسبب خطئه في إحضار المشروبات التي طلباها، كانا قد طلبا زُجاجتين من المياه الغازية، بينما أحضر صابر كوبين من الشاي! وعدهما صابر بأن يخرُج مرةً أُخرى ليُحضر لهما ما طلباه، لكنهما أشفقا عليه وتوسلا إليه ألا يفعل، فقد استحييا منه وترفَّقا به من فرط تعبه ومجهوده، خجل صابر من نفسه وخُصوصاً أن هذا هو خطأه الثاني في تلك الجولة، رُبما أعطى المياه الغازية لآخرين، لا يذكُر جيداً، إن رأسه مشغول بما سمعه من ذلك الرجُل الشاب وزوجته، فقد كان الحديثُ مُحبطاً للغاية بالنسبة له، لقد كان الناس يتحدثون في أمور الزواج والإنجاب والسفر والبقاء والأثاث والرحيل، بينما هو أبعد عن ذلك كُله، كم هو حقيرُ الشأن وسط هؤلاء، تماماً مثلما يكون في مكان عمله، لا فرق.

نكَّس رأسه نحو الأسفل وهو لا يزال يُفكر، وتوجَّه تلقائياً نحو نفس المكان الذي اعتاد الجلوس فيه في مواجهة الرجُل العجوز وزوجته، لم يلحظ هل

كان المقعد لا يزال خالياً أم لا، بل توجَّه إلى المكان ذاته وجلس على الفور. رُبما كان سيُلاحظ حالة المقعد لو أن أحدهم شغله، لكنه كان خالياً بالفعل لحُسن الحظِّ.

شبَّك صابر أصابع يديه في بعضهما بعضاً وأخذ ينظر إليهما موجِّهاً بصره نحو الأرض، استمرَّ في تفكيره قليلاً إلى أن ترامى إلى أذنيه صوت الزوج الشاب وزوجته الشابة وهُما يتبادلان الحديث بصوتٍ خافتٍ، لكنه كان يسمعه؛ نظراً لحالة الهُدوء التي كانت قد خيَّمت على أرجاء الصالة. التفتت الزوجة الشابة إلى اليمين نحو المرأة العجوز ثُم أشاحت بوجهها مُجدداً إلى اليسار نحو زوجها الشاب، وقالت: يبدو أنَّهما قد خلدا إلى النوم.. فقال الزوج الشاب: رُبما يُسعدهما الحظُّ بالنوم، أتمنَّى لو كُنا نستطيع النوم نحنُ أيضاً، لكن جلستنا هذه مُرهقةٌ للغاية..

فقالت الزوجة الشابة: ما رأيك فيما قالاه مُنذ قليل؟
قال الزوج الشاب: لقد قالا كلاماً كثيراً.. عن أي شيءٍ تسألين يا حبيبتي؟
فقالت الزوجة الشابة: أسأل عن كُلِّ شيء، أتدري يا حبيبي، أذكرُ أنني قرأتُ ذات مرةٍ مقولةً جميلةً تقول: إذا آلمتك الغُربة، فحينها عليك أن تتخذ قراراً من اثنين، إما أن تعود إلى الوطن.. أو أن تتكيَّف لتُصبح الغُربة وطناً.. ابتسم الزوج الشاب ابتسامة استنكارٍ وقال: يا لها من مقولةٍ رائعة، ولكن.. أي الخيارين سنختار؟

فهمت الزوجة الشابة المغزى من ابتسامة زوجها فقالت وهي تتنهد: آه يا حبيبي، لقد كانت كُلُّ مُخططاتنا مبنيةً على أساس أن تُصبح الغُربة لنا وطناً دائماً، لكن الأمر يبدو أنه لن يكون بتلك السُّهولة..

فقال الزوج الشاب: إذا سارت الأُمور على خير، سيتحقَّق النصف الثاني من مقولتك لفترةٍ من الزمن قد تصلُ إلى ثمانية عشر عاماً. قد تُصبح الغُربة لنا وطناً لفترةٍ طويلة، وأنا أفضِّل ألا نحمل هموم المشاكل التي قد تأتي آنذاك منذُ الآن، لماذا نُشغل رؤوسنا بهمومٍ ستأتي بعد ثمانية عشر عاماً؟ وقد لا تأتي تلك الهموم على الإطلاق، فلنستمتع بحياتنا إلى أن يأتي ذلك اليوم البعيد، وحينها سيكون لكُلِّ حادثٍ حديث..

قالت الزوجة الشابة: أتدري ما معنى أن نعيش بعيداً عن الوطن لمُدة ثمانية عشر عاماً؟ هل فكَّرت في ذلك؟ هل تظُنُّ أنك قد تتحمَّل أن تعيش منفياً هكذا دون أي اتصالٍ بالوطن؟ أنا لا أعتقد أنني قد أتحمَّل ذلك البعاد ولو لعامين مُتتالين!

تنهَّد الزوج الشاب وقال وهو يبدو عليه الأسى: ولكننا تركنا الوطن كالهاربين؛ بسبب غضب الأهل، كيف لنا أن نعود إليهم مرة أُخرى؟

قالت الزوجة الشابة: لكن الوطن ليس أهلنا فقط..

صمت الزوج الشاب وأخذ يُفكِّر قليلاً ثُم قال: أصبتِ يا حبيبتي، فالوطن ليس مقصوراً على أهلي وأهلك فقط، وليس من العدل أن نعيش كالمطرودين؛ خوفاً من مواجهة بعض الأفراد..

قالت الزوجة الشابة: لا تنسَ أن من بين هؤلاء الأفراد أمك وأمي أنا أيضاً..

قال الزوج الشاب: أعرف أننا سنشتاق إليهم، أنا أشتاق إلى أُمي من الآن، ولكن كيف لنا أن نعود إليهما؟ إن كلتيهما في أقصى حالات الغضب، وتنظران إلينا نظرة احتقار!

أطلقت الزوجة الشابة زفرةً تدلُّ على الأسى، ثُم قالت: وماذا عن ابنتي وابنك؟ أنسيتهما؟

تنهَّد الزوج الشاب وقال: لم يغيبا عن خيالي أبداً..

فقالت الزوجة الشابة: وماذا لو رزقنا الله بأولادٍ آخرين؟ هل من المعقول ألا يعرفوا شيئاً عن وطنهم إلى أن يبلغوا ثمانية عشر عاماً؟ هل من المعقول أن يتركوا الوطن البديل بعد كُلِّ ذلك العُمر ويتوجَّهوا إلى وطنهم الأصلي ليعيشوا فيه وهُم يتعرَّفون عليه لأول مرة؟

قال الزوج الشاب: ستكون صدمةً كبيرةً لهم بلا شك، فالوطن الذي عاشوا وترعرعوا فيه وأحبُّوه وحفظوا تفاصيله سيتركونه مُرغمين بسبب تلك القوانين الغريبة، بينما ما يُسمى بالوطن الأصلي سيكون جديداً عليهم في كُلِّ شيءٍ، وقد لا يحبُّونه، وقد يتعثَّرون في حياتهم بسبب اختلاف قواعده ومُسلَّماته، فقد اعتادوا وطناً آخر لسنواتٍ طويلةٍ، وسيكون من الصعب أن يتأقلموا على الوطن الجديد بسُرعة..

فقالت الزوجة الشابة: وما الحلُّ إذاً؟

صمت الزوج الشاب قليلاً ثُم قال: لا بُد من حلٍّ، لا بُد أن يكون هُناك حلٌّ، فليس من المنطقي أن نستسلم لفكرة الرحيل النهائي أو البقاء بالخارج لفترةٍ طويلةٍ هكذا..

فسألته زوجته: فيم تُفكِّر؟

فقال الزوج: أُفكِّر في جدوى كُلِّ ما نفعله الآن، إننا نهرب وكأننا نحنُ من أذنبنا، كيف للمجني عليهم أن يهربوا بينما الحق في صفِّهم؟

اتَّسعت حدقتا الزوجة الشابة، فاستدرك زوجها قائلاً: لقد كُنت ضحية زوجٍ قاسٍ سيئ الطباع، فمن الطبيعي أن تُحاولي التخلُّص منه ومن شروره، هذا هو المبدأ العام، أما أن تصادف أن يكون ذلك الزوج السيئ هو أخي فهذا أمرٌ لا يُغيِّر من ذلك المبدأ شيئاً..

ابتسمت الزوجة الشابة ابتسامةً جميلةً، فأمسك زوجها يديها ونظر في عينيها وقال: هذا هو المنطق الذي كان لزاماً علينا أن نواجه به الناس، وهذه هي آفةُ مُجتمعاتنا الظالمة التي تترك الأصول وتتشبَّثُ بالفروع، أتدرين يا حبيبتي.. ماذا لو حصلت على الطلاق من أخي ثُم تزوَّجت برجُلٍ آخر؟ هل كانت أُمُّك ستثور ضدَّك حينها؟

فأجابت الزوجة الشابة: بالطبع لا..
فسألها: وهل كانت أمي أنا أيضاً ستعترض على زواجك الجديد، مثلما اعترضت على زواجي أنا تحديداً منك؟
هزَّت رأسها بالنفي وهي تتنهَّد، فقال لها: لو كُنتِ قد تزوَّجت بآخر، كُلُّ ما في الأمر أن طليقك -الذي هو أخي- كان سيُصيبه بعض الضيق، ورُبما كانت أُمي ستحزن؛ لأنها تتمنى أن يعيش حفيدها بينك وبين أخي من جديد، وهذا أقصى ما في الموضوع..
قالت زوجته: هذا صحيح..

فاستطرد الزوج الشاب قائلاً: إذاً فطلاقك وزواجك لا يعيبهما شيءٌ على الإطلاق، وهذا هو المبدأ..
قالت زوجته: أجل..
فقال الزوج الشاب: والأمر نفسه بالمثل ينطبق عليَّ أنا أيضاً، فالكُل يعرف أنني كنتُ أُعاني من حياتي مع تلك الزوجة الملعونة، وكان طبيعياً أن يحدُث الانفصال بيني وبينها، لم يكُن الأمر مُفاجئاً لأحد..
ابتسمت الزوجة وقالت: نعم..
فقال: وكان من الطبيعي أن أتزوَّج بأخرى ولم يكُن ليعترض على ذلك أحد..
قالت زوجته: هذا صحيح..

فقال: لكن المُشكلة التي جعلت الجميع يستنكر فكرة زواجي هي أنك أنت الزوجة بالنسبة لي، تماماً مثلما استنكر الجميع لك أنني أنا الزوج بالنسبة لك..

هزَّت الزوجة رأسها فاستكمل حديثه وقال: أرأيت؟ إن الزواج في حد ذاته لم يكُن بالأمر المُستهجَن بالنسبة لك أو لي، لكن كلّ تلك الثورات التي قامت ضدنا كانت بسبب أنني تزوجتُ طليقة أخي، وأنك تزوَّجتِ أخا طليقك! إن زواجنا ليس حراماً ولا من الكبائر، لكنه يُعتبر عيباً من وجهة نظر المُجتمع، وما أسوأ المجتمعات التي تخشى العيب ولا تستحيي من الحرام..
قالت زوجته: أجل، أتدري يا حبيبي، لقد كنتُ أُشاهد ذات يومٍ أحد البرامج التليفزيونية التي تُناقش بعض المشاكل الاجتماعية، وكانت إحداهُنَّ تشكو من أن زوجها قد تزوَّج بأُخرى، وأنها حين واجهته بالأمر قال لها إنه كان يعشق تلك المرأة الأُخرى فتزوجها؛ خوفاً من أن يقع معها في الحرام، فإذا بزوجته الأولى تقول إن كرامتها لا تتحمَّل ذلك، وأنها كانت تُفضِّل أن تكون العلاقة بين تلك المرأة الجديدة وزوجها في خارج إطار الزواج، أي أنها تُفضِّل أن يكون زوجها زانياً على أن يتزوَّج على سُنة الله ورسوله!

فقال لها: عقولٌ مريضة، تخشى الناس ولا تخشى الله عزَّ وجلّ!
ابتسمت الزوجة الشابة وقالت: هل ستتزوَّج بأُخرى إذا أعجبتك.. وحينها ستستند إلى نفس المنطق؟
فأمسك بيدها وقال بصوتٍ يملؤه الحنان: لا توجد أُخرى يُمكنها أن تملأ عيوني وقلبي وروحي وكُلّ حياتي.. أنت كُلُّ نساء الأرض بالنسبة لي..

قالت: أحبُّك.. أنت كُلُّ الدُنيا بالنسبة لي، إياك أن تتركني أو أن تتخلَّى عني، لم يعُد لي سواك في هذه الحياة..
فقال: لا تقولي ذلك، لن أتركك أبداً..
فقالت: لقد تركتُ كُل الأهل والناس ولم يعُد لي سواك..
فقال: وأنا أيضاً لم يعُد لي سواك، إنك لست مُجرَّد زوجةٍ لي يا حبيبتي.. أنت لي الآن كُل الناس..

صمتا للحظاتٍ وكُل منهما ينظر في عيني الآخر، أمسك يديها بكلتا يديه وكأنه على وشك أن يُقبِّلهما، لكنها جذبت يديه بقوةٍ إلى أسفل بينما عيناها تنظر يميناً ويساراً خشية أن يراهما أحدهم، فابتسم لها وهو يهزُّ برأسه مُعرباً عن تفهُّمه للوضع، فقطع حاجز الصمت وقال لها: لقد تزوَّجنا وفق شرع الله، ولم نرتكبْ إثماً قط، فليتحدَّث عنا من يتحدَّث، وليلوكَ في سيرتنا من يشاء، فالله هو المُطَّلع على حقيقة أمورنا ونوايانا وليس الناس..
فقالت زوجته: ماذا تعني؟ ماذا تُريد أن نفعل؟
فأجابها قائلاً وهو يُفكر في نفس الوقت: لنتخلَّص من فكرة الهُروب التي كُنَّا قد اتفقنا عليها، هل يُهمُّك أحدٌ غيري؟ أنا شخصياً لا يُهمُّني في هذه الدُنيا سواك.
فسألته زوجته: لا أفهم ما ترمي إليه، وضِّح لي الأمر أكثر، هل تُريد أن نعود لنواجه الأهل مُجدداً؟ ولم؟
فأجاب الزوج: رُبما نعم ورُبما لا، إن أمامنا العديد من الاختيارات، المهم الآن أن نتفق سوياً على أن نلغي من مُخططاتنا تلك الفكرة الأولى التي كانت تتضمَّن أن نبقى بالخارج طيلة العُمر أو لمُدة ثمانية عشر عاماً بعد التعديل الجديد..

ابتسمت الزوجة وقالت: هذا رأيٌ صائب، لقد كان أمراً مُستحيلاً أن نستسلم لفكرة البقاء كالمنفيين خارج الوطن هكذا، لا بُد لنا من أن نتردَّد على أرض الوطن كُل عامٍ أو عامين، وسيكون ذلك مُفيداً جداً لأولادنا الجُدُد أيضاً، لا بُدّ لهم أن يعتادوا شكل الحياة هُنا، لا بُدَّ ألا يكون الوطن مُفاجئاً لهُم أو جديداً عليهم، وإلا فكيف يُمكننا أن نقنعهم بأنه الوطن؟ وخصوصاً أنهم سيكونون مُرغمين على الانتقال إليه في وقتٍ ما وفقاً للقوانين المُلزمة..

ابتسم الزوج الشاب وقال: إذاً فقد اتفقنا، وعندما يأتي موعد عُطلتنا القادمة، دعينا نُعود إلى أرض الوطن وليتحدَّث عنا من يشاء، ولن يحبسني أحدٌ خارج البلاد . المُهم عندي هو أنت..

أمسكت الزوجة الشابة بيدي زوجها ونظرت إلى عينيه وقالت: وماذا لو حادثك أحدهم عند عودتنا وأسمعك كلاماً سيئاً؟ ألن يُصيبك الضيق؟ ألن تشعر بأنني سبب ذلك؟

قال لها بحنان: أنت سبب سعادتي، ولن يُضايقني أي كلامٍ من أي أحد، قلتُ لك إنني لا يُهمُّني إلا أنت وأنت فقط..

فقالت وهي تهمس: أُريد أن أُقبِّلَكَ الآن..

فاقترب برأسه من رأسها قليلاً مُداعباً إياها، وحينها علا صوتُ سُعال الرجُل العُجوز، فالتفتا سوياً نحو مصدر الصوت، كان الرجُل العجوز يُسعل بصوتٍ عالٍ، ولكن لا يبدو عليه هل هو سُعالٌ حقيقي أم إنه فقط يُحاول أن يُنبِّه الزوجين الشابين، كانت المرأة العجوز مُتيقظةً هي الأُخرى وتنظر نحو اليسار، حيث تجلس الزوجة الشابة وليس نحو زوجها الذي يسعل، اتَّسعت ابتسامة الزوجين الشابين، ونظرا إلى بعضهما، ثُم التفتت الزوجة

الشابة نحو المرأة العجوز، بينما تعلو حمرة الخجل وجنتيها، وكأنها تُريد أن تسالها: منذُ متى وأنتما تُتابعان حديثنا؟ كان الرجُل العجوز ما زال يُسعل، فقام الزوج الشاب نحوه وهو يحمل زُجاجة مياه، وقال لزوجته العجوز: أستسمحُك أن تبادليني مكانك يا سيدتي..

قامت المرأة العجوز على الفور، فجلس الزوج الشاب مكانها، وأخذ يربت على ظهر الرجُل العجوز بشدةٍ، ثُم ناوله زُجاجة المياه، شرب العجوز بعض المياه ثُم شكر الرجُل الشاب، بادره الزوج الشاب بالسؤال قائلاً: هل أصابتك بعض أعراض البرد أم ماذا؟

فقال العجوز: لا أعتقد ذلك، رُبما حدث لي بعض الاختناق وأنا نائم، لم أشعُر بنفسي عندما خلدتُ إلى النوم..

نهض صابر من مكانه وبدا عليه الانزعاج وقال: هل أُحضر لك مشروباً يا سيدي؟ هل تحتاج إلى شيء دافئ؟

هزَّ العجوز رأسه بالنفي وقال: لا يا بُني، يكفيني هذا الماء، أشكُرك..

جلس صابر مكانه وهو يُتابع حالة الرجُل العجوز لعله يُصاب بالتعب من جديد، لكن العجوز هدأ سريعاً بالفعل.

قال الزوج الشاب موجِّهاً حديثه للعجوز: حسناً فعلت أنك استطعت أن تنام ولو لفترةٍ قصيرةٍ، جميعُنا يتمنَّى أن يكون في فراشه الآن..

قال العجوز: مهما حاول المرء أن ينام هُنا فإنه لن يرتاح أبداً، وضعية "النوم جالساً" هذه تُرهق عضلات الجسم ولا تُريحه، هل حاولت أن تنام أنت وزوجتك؟

قال الزوج الشاب: كلا لم نُحاول ذلك، لقد سرقنا الوقت ونحنُ نتحدَّث..

ابتسم العجوز وقال: أتفهَّم ذلك، فأنتما عروسان جديدان..

بادله الزوج الشاب الابتسام وقال: لم يكُن حديثاً عاطفياً، كُنا فقط نتشاور في أمور حياتنا..
ضحك العجوز ضحكةً خفيفةً وقال: لم أسألك عما كان حديثكما، لكن تبريرك الآن يدلُّ على أنك كُنت تتغزّل فيها..
ابتسم الزوج الشاب في خجلٍ وقال: ليس كذلك تماماً..

ثم التفت إلى يساره حيث تجلس زوجته الشابة، فتفاجأ بأنها قد أرجعت رأسها إلى الوراء وقد أغمضت عينيها، يبدو أنه قد غالبها النوم فجأةً أو أنها تُحاول أن تنام، رفع رأسه قليلاً لينظر إلى المرأة العجوز التي جلست مكانه فوجدها تغُطُّ بالفعل في النوم، كانت تتّخذ نفس وضعية زوجته لكنها نامت سريعاً، وكان فمها مفتوحاً وبدأت في إصدار صوت شخير مُتقطِّع.. توجَّه الزوج الشاب ببصره إلى يمينه نحو الرجُل العجوز ثانيةً فوجده هو الآخر كان يرمي ببصره نحو زوجته العجوز كأنه يتأكد هو الآخر أنها قد نامت، ابتسم العجوز بشدةٍ وبدا وكأنه سعيدٌ للغاية لأن زوجته قد نامت، لاحظ الزوج الشاب ذلك وكاد أن يضحك، لكنه حاول أن يكتم ضحكته، ونجح نسبياً في ذلك، فظهر وكأنه يبتسم ابتسامةً واسعة، لم يكترث العجوز وقال وهو يُشير برأسه نحو الزوجة الشابة: يبدو أنك تُحبُّها بشدة..
هزَّ الزوج الشاب رأسه وقال: أجل.. لم أكُن أتخيل أن أجد مثلها أبداً..
فقال العجوز: أُدرك ما تقول يا عزيزي، لقد عاصرتُ العديد من القصص والحكايات طيلة عُمري، واستخلصتُ منها أن الحُبَّ الحقيقي نادرٌ جدا، وكثيرٌ من الناس قد يعيشون عُمراً بأكمله ولا يجدون تلك المحبوبة أبداً..
أومأ الزوج الشاب برأسه موافقاً وقال: كانت تجربتي الأولى كفيلةً بأن تجعلني لا أثق في وجود الحُبِّ أبداً، كنتُ أظُن نفسي قليل الحظ وكنتُ

أتصوَّر أنني سأعيش عُمري كُله دون أن أجد حبيبتي التي خلقها الله مُتوافقةً تماماً معي..

فقال العجوز: أقولها لك وأقولها لكُل الناس، إذا صادفت محبوبتك الحقيقية ذات يومٍ وتأكدت من أنها هي التي قد خلقها الله من ضِلَعِك أنت، فلا تتركها أبداً مهما كانت الظروف، إذا وجدتها يا بُني فلا بُدَّ أن تتبعها إلى آخر العالم، إن يوماً واحداً بين ذراعيها لا تُساويه عشرات السنين وأنت بعيدٌ عنها، ولا معنى للحياة أصلاً في غيابها..
ابتسم الزوج الشاب وقال: يا الله.. يا لك من إنسانٍ رومانسي مُرهف الحس يا سيدي..
تنهَّد العجوز وقال: ألا ليت الشباب يعود يوماً..
فقال الزوج الشاب: لا تقُل ذلك يا سيدي، فالحياة لا تُقاس بالعُمر، إنما تُقاس بشباب القلوب..

فقال العجوز: أعرف ذلك، ولكن بم يُفيد شباب القلب إذا ضاعت الفُرصة..
فقال الزوج الشاب: أي فُرصة؟
فقال العجوز: الفُرصة التي حدَّثتك عنها، أن تجد حبيبتك الحقيقية، فأغلب الناس قد لا يجدون تلك الفُرصة أصلاً، قليلون هُم من يُصادفونها، وأغلب من تأتي إليهم الفُرص يُضيعونها! أغبياء، إنهم أغبياء، وغالباً ستجدهم يبكون بعد ذلك على تضييعهم لتلك الفُرص..
قال الزوج الشاب: أراك تتحدَّث بحُرقةٍ يا سيدي.. هل لي أن أسألك سؤالاً خاصاً بعض الشيء؟
فقال العجوز: لك ذلك..

فقال الزوج الشاب: أشعرُ من كلامك بأنك حزينٌ؛ لأنك لم تجد تلك الحبيبة، ولم يُسعدك الحظ بأن تكون من بين هؤلاء القلائل الذين تأتيهم الفرصة، أليس كذلك؟

ابتسم العجوز وقال: كلا، إنني من القلائل الذين أتتهُم تلك الفُرصة..
اتَّسعت حدقتا الزوج الشاب وقال: حقاً! لم أتوقَّع ذلك..
التفت الزوج الشاب نحو المرأة العجوز ثُم عاد بوجهه نحو زوجها، وقال: إذاً أنت أيضاً مثلي قد وجدتها..
فقال الرجُل العجوز وهو يبتسم: كلا إنها ليست زوجتي هذه، لقد كانت امرأةً أُخرى..
بدا الاندهاش على وجه الزوج الشاب وصمت قليلاً، ثُم قال: كانت امرأةً أخرى! وأين هي تلك الأخرى؟

هزَّ العجوز رأسه وأطلق زفرةً طويلةً ثُم قال: لا أدري، لقد كان ذلك منذُ عدَّة سنوات، ولم أتتبَّع أخبارها منذُ أن تركتها..
بدا الاستياء على وجه الزوج الشاب وقال: ولِمَ تركتَها يا سيدي؟ لِمَ لَمْ تتمسَّك بها؟
صمت العجوز قليلاً، فاستطرد الزوج الشاب قائلاً وهو يُخفض صوته: وماذا عن زوجتك هذه؟
فقال العجوز وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة: كان زواجنا تقليدياً للغاية، لم أُحبَّها وهي أيضاً لم تُحبَّني، قالوا لنا إن الحُبَّ قد يأتي بعد الزواج، لكنه لم يأتِ أبداً، لكن حياتنا المُشتركة كانت مبنيةً على المودة والرحمة وحُسن العشرة فيما بيننا، وخصوصاً أن الله رزقنا بالذُرية التي يتمنَّاها أي شخص، وأنت تعلم أن المال والبنين زينة الحياة الدُنيا..

قال الزوج الشاب: أجل يا سيدي أعلم ذلك..

فقال العجوز: لقد صببنا كُلَّ اهتمامنا على الأولاد، كُنا نعنى بتربيتهم ودراستهم وكُلِّ تفاصيل حياتهم، انشغلنا في ذلك لسنواتٍ طويلة، نسينا أنفسنا ومشاعرنا واهتماماتنا، وركَّزنا كُلَّ مجهوداتنا فقط من أجل الأبناء..
ابتسم الزوج الشاب وهو يهزُّ رأسه، فاستكمل العجوز حديثه قائلاً: كُنا سُعَدَاء بذلك للغاية، لكن لكُل أمرٍ نهاية، فقد مرَّت السنون سريعاً وصار الأبناء كباراً، ولم يعودوا يحتاجون منا تلك الرعاية اليومية اللصيقة..
قال الزوج الشاب: ثُمَّ؟
ابتسم العجوز وقال: ثُمَّ وجدتها.. لم أكُن أتخيَّل أنني سأجدها..
قال الزوج الشاب: مثلي تماماً..

قال العجوز: كانت زميلتي في العمل هُناك، كانت تعمل مع زوجها في إحدى الشركات، ثُم تركت تلك الشركة عندما توفِّيَ زوجها وانضمَّت إلى الشركة التي كنتُ أعمل بها بعد وفاة زوجها بعامين أو ثلاثة، لم أكُن أتخيَّل أن أجد امرأةً مُتوافِقةً معي في كُل شيء إلى تلك الدرجة..
قال الزوج الشاب: هل أحببتها يا سيدي؟
فقال العجوز: لقد عشقتها بجنون، وصرت لا أتحمَّل أن يمُرَّ علي يوم واحد دون أن أراها..
قال الزوج الشاب: وكيف كان شعورها هي الأُخرى؟
قال العجوز: لا تنسَ أن كلينا كان ناضجاً بما يكفي، لقد كانت مثلي مبهورةً بتطوُّر علاقتنا بتلك السُّرعة، كثيراً ما كُنا نتعجَّب سوياً من ذلك الاقتراب المُتسارع بين قلبينا، حاولنا كثيراً أن نكبح زمام قلوبنا لكننا فشلنا، إلى أن أدركنا أنه لا داعي للمُقاومة، فقد تأكَّد كُلٌّ منا أن الله قد خلقنا كي نكون

لبعضنا بعضاً. وكأننا قد كُتِب علينا أن نكون حبيبين منذُ أن كُنا في عالم الذرّ..

ابتسم الزوج الشاب وقال: يا لها من لمحاتٍ عاطفيةٍ رقيقة.. وماذا حدث بعد ذلك؟

قال العجوز: طلبت منها أن نتزوَّج، فأنا لم أكُن أعتبر نفسي مُتزوجاً بحق، فزوجتي هذه كانت تعنى بمأكلي وملبسي فقط، بينما لا يوجد أي حُبٍّ أو عواطفَ فيما بيننا..

فقال الزوج الشاب: أتعني أن علاقتك بزوجتك كانت جافَّة؟

قال العجوز: كانت حياتنا أشبه بحياة صديقين يعيشان في منزلٍ واحدٍ، وكُل ما يجمعهما هو بعض المصالح المُشتركة، وحتى تلك المصالح بدأت في التقلُّص كثيراً بعد أن كبر الأبناء وبدأوا في الانفصال عنا الواحد تلو الآخر..

قال الزوج الشاب: أتفهّمُ ذلك..

فاستكمل العجوز حديثه وقال: لكن الرياح لم تأتِ بما يشتهي السَّفِن، ففي يومٍ ما اكتشفت زوجتي تلك العلاقة بيني وبين زميلتي في العمل، وكان ذلك قبل موعد زواجي من زميلتي بأسبوعٍ كامل..

فتح الزوج الشاب فاه وقال: يا للهول.. وكيف اكتشفت ذلك؟

فقال العجوز: تلك التفاصيل ليست مُهمَّةً الآن.. المُهمُّ أن زوجتي اكتشفت ذلك وانفجرت فينا كقُنبلةٍ نووية..

فقال الزوج الشاب: وكيف كان تصرُّفك في تلك الحرب؟

قال العجوز: كان عليَّ أن أختار بين أمرين، إما أن أنصاع لقلبي وأُتِمَّ زواجي من زميلتي في العمل، أو أن أنصاع لصوت المُجتمع والأصدقاء والأبناء والعائلة، فقد كانوا جميعاً يرون أنني يجب ألا أستسلم لنزواتي، وأن أعود

كما كنتُ مع زوجتي لأعيش معها الحياة التقليدية التي كُنا عليها؛ وذلك لكي نُحافظ على الشكل العام للأسرة والأولاد والعائلة وهكذا..

فقال الزوج الشاب: ويبدو أنك تركت حبيبتك يا سيدي..

قال العجوز: أجل، هذا ما حدث بالفعل، لقد استسلمت وتركت حبيبتي. وكان ذلك خطأً فادحاً..

تناول العجوز بعض المياه ثُم قال: لم تثق بي زوجتي أبداً بعد ذلك، ولم تعُد المودة والرحمة فيما بيننا كما كانت، لقد أصبحت العلاقة فيما بيننا أكثر جفافاً عن ذي قبل، وصارت حياتي مسخاً، وكأنني مُعاقبٌ على فعلتي تلك مدى الحياة..

تنهّد العجوز واستكمل قائلاً: لقد كسرتُ قلب زميلتي؛ لأنني تركتها بسهولةٍ هكذا، وقد كنتُ بالنسبة لها حُبَّ العُمر كما كانت هي كذلك بالنسبة لي أنا أيضاً، ولم يستفد أيٌّ منا بشيءٍ من هذا الانفصال سوى حياةٍ أكثر سوءاً، وكنتُ أنا السبب في ذلك الانفصال؛ بسبب سوء تقديري، لقد قلتُ لك منذُ لحظات.. قليلون هُم من يجدون حبيبة العُمر، وأغلبهم يضيعون تلك الفُرصة مثلما فعلت أنا بيدي..

ربت الزوج الشاب على كتف الرجُل العجوز مواسياً إياه، وقال: لا أدري ماذا أقول لك يا سيدي..

قال العجوز: لا عليك يا عزيزي، فأنا أُحاول أن أنسى ذلك منذُ سنواتٍ، ودائماً أُشغل نفسي بأمورٍ عديدة لعلها تشغلني وتُنسيني ذكراها..

أومأ الزوج الشاب برأسه مؤمّناً على كلامه، فقال العجوز وكأنه يتهرّب من الذكريات: أُريد أن أذهب إلى دورة المياه..

فنهض الزوج الشاب وقال: سآتي معك يا سيدي، أحتاجُ إلى ذلك أنا أيضاً، ولكن أين هي دورات المياه؟

فتدخَّل صابر وأشار بيده نحو مكانٍ بعيد، وقال: دورات المياه هُناك يا سيدي في آخر الصالة ناحية ذلك الرُكن..
أومأ الرجُلان برأسيهما مُعبِّرَين عن شُكرهما لصابر، ثُم توجَّها نحو المكان الذي أشار إليه بهدوء.
وفي نفس اللحظة فتحت الزوجة الشابة عينيها، فلمحت زوجها وهو يسير بعيداً، بدا على وجهها علامات الاستفهام، فإذا بصابر يتطوَّع ويقول لها بصوتٍ عالٍ: إنهما ذاهبان إلى دورات المياه يا سيدتي..
ابتسمت الزوجة الشابة شاكرةً له، ثُم نظرت نحو المرأة العجوز فوجدتها قد استيقظت من نومها هي أيضاً..
تبادلتا بعض الابتسامات الخفيفة ثُم قالت المرأة العجوز: أتُحبّينه إلى تلك الدرجة؟ لن يغيب عنك كثيراً..

اتسعت ابتسامة الزوجة الشابة وقالت: أعلم ذلك، لكنه كُلُّ الدُنيا بالنسبة لي لو تعلمين..
قالت المرأة العجوز: أتمنَّى لك كُلَّ الخير، وأتمنَّى أن يكون زوجك مُخلصاً لك ومُقدِّراً لهذا الحُبِّ الكبير..
نظرت الزوجة الشابة نحوها نظرة استفهامٍ فاستكملت العجوز قائلةً: لا تقلقي يا عزيزتي، لكن في نفس الوقت يتوجَّب عليك أن تكوني حَذِرةً..
قطبت الزوجة الشابة جبينها وسالت: ولِمَ الحَذَر؟
قالت المرأة العجوز: سأُخبرك عن صفةٍ غريبةٍ تُلازم مُعظم الرجال، فعليك أن تحذريها..

أومأت الزوجة الشابة برأسها كأنها تطلب من العجوز أن تستأنف حديثها، فقالت العجوز: إن مُعظم الرجال لا يستطيعون أن يدينوا بالولاء إلى امرأةٍ

واحدةٍ. سريعاً ما يُصيبهم الملل ويبحثون عما يفتقدونه في امرأةٍ أخرى. لا أذكر أنني سمعتُ برجُلٍ لم تكُن له نزوةٌ ما إلا فيما ندر. لم تُخبرني أُمي بالطبع هل كانت هُناك نزواتٌ لأبي أم لا. لكنني على الأقل عاصرتُ ذلك مع زوجي وأزواج صديقاتي. كما أن زوجة ابني الأكبر قد اشتكت لي من ذلك أيضاً..

بدا الاندهاش الشديد على وجه الزوجة الشابة. فقالت: هل تعنين أن كُل الرجال الذين مروا بحياتك كانت لهُم نزوات؟ حتى زوجك؟

قالت العجوز: أجل حدث ذلك مع مُعظمهم، ولم ينجُ منهم إلا القليل..

فسألت الزوجة الشابة: وما السبب الذي يدفع الرجال لذلك؟

قالت العجوز: إنه الملل كما قُلتُ لك. فالرجال مَلُولُون بطبعهم، ويبحثون دائماً عن التغيير..

فقالت الزوجة الشابة: ولِمَ لا تقولين إن هُناك تقصيراً ما من الزوجة نفسها؟

قالت العجوز: كلا. لم أكُن مُقصرةً في أي شيء..

قالت الزوجة الشابة: لا أتحدَّث عنك أنت تحديداً. لكنني أتحدَّث بشكلٍ عام؛ فالزوجة لا بُدَّ أن تكون مُتجددةً باستمرار في كُل شيء؛ حتى لا يُصاب زوجها بالملل، ولا هي أيضاً..

ابتسمت العجوز ابتسامة استنكار. ثُم قالت: تقولين ذلك لأنك تزوَّجت عن حُبٍ. هل كُنت تفعلين ذلك مع زوجك الأول؟

قالت الزوجة الشابة: بالطبع لا. فقد كان زواجي منه تقليدياً. كما أنه دفعني لكي أكرهه بعد الزواج..

فقالت العجوز: وهكذا كنتُ أنا أيضاً، فعندما تتزوَّج المرأة زواجاً تقليدياً لا حُبَّ فيه، فإن الزوج هو الآخر لا يكون مُشجِّعاً لزوجته على التجديد والإثارة، وهو ما يجعل الزوجة تفتُرُ شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن..
هزَّت الزوجة الشابة الشابة رأسها وقالت: هذا صحيح..
فقالت العجوز: لقد كنتُ أُحبُّ ابن خالتي منذُ أن كُنَّا صغيرين، وكنتُ أحلم بأن أتزوَّجه عندما نكبر، لكنه لم يكُن مُستعداً مادياً لتكاليف الزواج، وفجأةً تقدم إليَّ زوجي هذا طالباً يدي للزواج، كان يعمل بالخارج لمُدة عامين قبل أن يتقدَّم إليَّ، وقد كان ذلك كفيلاً بأن يجعله مُستعداً لتكاليف الزواج.

فقالت الزوجة الشابة: وماذا عن حبيبك؟ هل كان الأهل يعلمون بقصة حُبِّك تلك؟
قالت العجوز: أجل، لقد كانوا يعلمون بكُل التفاصيل، لكن عندما تقدَّم إليَّ زوجي هذا، نسوا كُلَّ ذلك، وقالوا لي إن ذلك الحُبَّ هو حُبٌّ طفولي لا يُمكن أن يتطوَّر إلى زواجٍ فعلي، وطلبوا مني أن أحتكم إلى عقلي وليس إلى قلبي، وقد كان..
فقالت الزوجة الشابة: آه.. حكاية مُعادةٌ ومُكرَّرة..
فقالت العجوز: وسارت الحياة وتزوَّجتُ وأنجبتُ أطفالاً، حتى كبروا، وبدأ كُل منهم في الرحيل إلى منزله، وحينها نسي زوجي كُل ذلك وارتبط عاطفياً بامرأةٍ أخرى..
فقالت الزوجة الشابة: حقاً؟ وماذا فعلت إذاً؟
قالت العجوز: اعتبرتُ ذلك الأمر حرباً تخُصُّ كرامتي، وأرغمته على عدم استكمال تلك العلاقة، وأجبرته على ترك تلك المرأة..
ابتسمت الزوجة الشابة وقالت: ونِعْمَ المرأة القوية..

فقالت العجوز: لم يكُن ذلك قراراً صائباً يا عزيزتي..
اندهشتُ الزوجة الشابة وقالت: كيف ذلك؟

قالت العجوز: لقد ضيَّعتُ فُرصةً كبيرةً واخترتُ طريق التعاسة بدلاً من طريق السعادة، لقد ظلَّ ابن خالتي وفياً لحُبِّنا ولم يتزوَّج أبداً، كان يقول للجميع إنه سيقضي عُمره كُله ينتظرني، فهو لا يتخيَّل نفسه مُتزوجاً بغيري، وكانت تلك النزوة التي اكتشفتُها لزوجي سبباً كافياً لكي أطلب الطلاق، فقد كان زوجي حينها في موقفٍ ضعيفٍ للغاية، وكان الجميع يقفون ضدَّه، وكانت صورته مهزوزةً أمام أولادنا وباقي أفراد العائلة، لكنني أخطأتُ في حق نفسي، نعم أخطأت، فقد آثرتُ أن أقتصَّ لكرامتي وصورتي أمام الناس، بينما كان من المُمكن أن أتخلَّص من هذا الزواج المُملِّ، وأعود إلى حبيبي الأول الذي لم أعشق غيره..

بدا الاستياء على وجه الزوجة الشابة، هزَّت رأسها يميناً ويساراً، وقبل أن تبدأ في التعليق على ما سمعته، أمسكت المرأة العجوز بيدها وضغطت عليها بشدة، أشارت برأسها نحو اليمين فنظرت الزوجة الشابة إلى ذلك الاتجاه، لتجد أن زوجها قد عاد ومعه الرجُل العجوز، فتصنَّعت ابتسامةً خفيفةً نحوهما وتوقَّفت عن الحديث، جلس الرجُلان وقال الزوج الشاب موجِّهاً سؤاله نحو صابر: كم الساعة الآن؟

نظر صابر إلى ساعته وقال: لقد مرَّ ثلاث ساعاتٍ على موعد إقلاع الطائرة الأصلي.. سأخرج الآن لأستكشف الأمر.. لقد أصابنا الملل من طول الانتظار..

الفصل التاسع

كُلُّ شيءٍ في بدايته يحمل بريقاً رائعاً لكنه ما يلبث أن ينطفئ سريعاً بعد تكراره كثيراً. كان ذلك هو ما يقوله صابر لنفسه وهو يُنهي جولته الجديدة في توزيع المشروبات وجمع ثمنها من الركاب، لم يعد يلمح في أعينهم نظرة التقدير والاحترام التي كان يراها حينما بدأ في مُهمته تلك. رُبما أصاب الناس بعض الإعياء والتعب، رُبما أصابهم الملل من طول الانتظار. ورُبما كان ذلك شعوره هو فقط. رُبما كان الملل والتعب بداخله هو لكنه لا يدري، فليُمنِّي نفسه بذلك الاحتمال.

كان يُقدِّم آخر مشروبٍ لديه لكهلٍ يبدو عليه أنه في آخر الأربعينات من عُمره، كان الرجُل مشغولاً بمُطالعة أمرٍ ما على حاسوبه الشخصي، اقترب صابر من الرجُل وناوله مشروبه قائلاً: تفضل يا عزيزي..
انتبه الكهل إلى مصدر الصوت، ورفع رأسه عن شاشة الحاسوب ثُم ابتسم وقال: كنتُ أظنُّ أنك نسيتني..

فقال صابر: لا يُمكن أن أنساك، ثُم إنني حفظت شكلك جيداً بسبب ذلك الحاسوب، أنت الوحيد هُنا بين الجميع الذي يستخدم حاسوبه في هذه الصالة..

ابتسم الكهل وقال وهو يتنهَّد: كان لا بُدَّ لي أن أستغلَّ هذا الوقت الضائع. فقد كان من المُخطَّط أن أقوم بإجراء هذه الحسابات في صباح الغد، وكان من المُفترض أن أكون نائماً الآن، انعكست الآية تماماً بسبب تأخُّر الطائرة، ومن الطبيعي أنني سأنام فور وصولنا إلى هُناك، ومن المؤكد أن ساعات نومي ستمتدُّ حتى وقت الظُهر مثلاً، وبالتالي فإن هذه الحسابات ستتأخر، لذلك لم أُضيّعْ وقتي وبدأت في إجرائها..

قال صابر: حسناً فعلت يا عزيزي، يبدو أنك مُجتهدٌ في عملك ويغلب عليك التنظيم والتخطيط الجيد..

ابتسم الكهل وقال: هذا من فضل الله، وأحمد الله أنني قد انتهيت للتوّ من إجراء تلك الحسابات، لقد جئت لي بهذا المشروب في وقته تماماً..

قال صابر: حقاً؟ لقد كنتُ أعتقد أنني أُعطِّلك عن أداء عملك..

أشار الكهل برأسه مُعرباً عن النفي، ثُم أشار بيديه ناحية مقعدٍ مُجاورٍ له وقال: تفضَّل بالجلوس، هل ستظلُّ واقفاً هكذا؟

تردَّد صابر للحظةٍ حيث نظر إلى مكان مقعده المواجه للرجُل العجوز، كان مكان ذلك المقعد يقع خلف مكان الكهل مُباشرةً، والغريب أن المقعد ما زال خالياً، إذاً فقد كان ظهر صابر مُلاصقاً لظهر هذا الكهل دون أن يدري، ابتسم صابر وأومأ برأسه شاكراً وجلس وهو سعيدٌ بتلك الدعوة..

قال الكهل: هل لي أن أستأذنك في أن تُمسك لي بالكوب حتى أتمكّن من إغلاق الحاسوب؟
قال صابر: بالطبع، على الرحب والسعة..
تناول صابر الكوب من الكهل الذي أخذ يقوم بإغلاق جهاز الحاسوب ووضعه في حقيبته الخاصة به بعناية، ثُم لملم بعض الأوراق ووضعها في الحقيبة أيضاً، ثُم ابتسم ناحية صابر وهو يمدُّ يده إليه ليتناول منه الكوب، بادله صابر الابتسام وأعاد إليه كوبه، وبادره مُتسائلاً: يبدو أن مُديرك في العمل كان ينتظر ذلك التقرير بشدةٍ، أليس كذلك؟

ابتسم الكهل ابتسامةً واسعةً وقال: لا يوجد مُدير لي..
فقال صابر: إذاً فأنت المُدير، أليس كذلك؟
ابتسم الكهل ثانيةً وقال: أنا صاحب العمل يا عزيزي..
اندهش صابر واتَّسعت حدقتا عينيه وقال: حقاً؟ يا لها من مُفاجأة..
فقال الكهل: ولِمَ المُفاجأة؟
قال صابر: كنتُ أظنُّ أن أصحاب الأعمال هُناك يكونون من المواطنين فقط، هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها واحداً من أبناء وطني ويمتلك شركةً ما هُناك..

ابتسم الكهل وقال: أتفهّم ما تعنيه يا عزيزي، فقد كانت القوانين هُناك لا تسمح بأن يستثمر الأجانب في ذلك البلد، لكن الأمر قد تغيَّر مُؤخراً عندما أقرُّوا قوانين جديدة للاستثمار تسمح للأجانب بمُزاولة أنشطةٍ مُختلفةٍ يتملكونها بأنفسهم..
رفع صابر حاجبيه وقال: حقاً؟ لم أكُن أعلم ذلك، هل هذا القانون حديث الشأن أم ماذا؟

فقال الكهل: أجل، فالقانون الجديد صدر منذُ عامين فقط..

فقال صابر: وهل يعني ذلك أن عُمْر شركتك الخاصة هُناك أقلُ من عامين فقط؟

فقال الكهل: كلا، لقد بدأتُ نشاطي هُناك منذُ خمسة أعوامٍ..

فقال صابر مُندهشاً: كيف يكون ذلك يا سيدي؟ كيف لك أن تبدأ إنشاء شركتك منذُ خمسة أعوامٍ بينما القانون المُنظِّم لذلك قد صدر منذُ عامين فقط؟

هزَّ الكهل رأسه وهو يُطلق زفرةً طويلةً وقال: معك حق، أُدرك أنك ستندهش من ذلك، لكنها حكايةٌ طويلةٌ يا عزيزي..

التفت صابر فجأة إلى الخلف بسُرعةٍ كبيرة، فالتفت الكهل هو أيضاً مُستفهماً عن سبب تلك الالتفاتة المُفاجئة. كان الشاب الأعزب الذي يجلس بجوار الرجُل العجوز قد قام من مكانه وجلس على المقعد الخالي الذي كان يجلس عليه صابر، ثُم ربت على كتف صابر يُريد أن يسأله سؤالاً ما، بدا الاستفهام الشديد على وجه صابر، فقال الشاب على الفور: أرجو المعذرة، يبدو أنني قطعتُ حديثكما، لم أنتبه لذلك يا سيدي عندما قُمتُ من مكاني..

فقال الكهل: لا عليك يا عزيزي..

فقال الشاب: أشكرك يا سيدي..

ثُم توجَّه بحديثه نحو صابر، وقال: لقد كنتُ نائماً ولم أتابع أخبار الطائرة، ومن المُؤكد أن لديك أخباراً من الخارج..

ابتسم صابر وقال: لم يفُتك أية أخبارٍ يا عزيزي، فما زال إصلاح العُطل جارياً، ولم ترد إليَّ أخبار جديدة..

هزَّ الشاب رأسه في أسى ثُم قال: أشكرك.. وآسف على المُقاطعة مرةً أُخرى..
ابستم الكهل بامتنان ثُم ابتسم صابر هو الآخر، وأمسك بذراع الشاب ووجَّه حديثه نحو الكهل وقال: إن هذا الشاب الجميل قد يكون أحوج الناس لسماع حديثك يا سيدي، هل تُمانع أن نضُمَّه إلينا ليستفيد من خبراتك؟
ابتسم الكهل ابتسامةً تدلُّ على الاستفهام، ففهم صابر ذلك على الفور وقال: إن هذا الشاب ما زال في مُقتبل العُمر، وقد أمضى خمس سنوات بالخارج، لكنه ناقمٌ على حياته هُناك ويُريد أن يعود إلى الوطن..

فقال الكهل وهو يرفع حاجبيه: حقاً؟
فقال الشاب: أجل يا سيدي، لقد سئمتُ أن أعمل أجيراً لدى الغير، وأتوق لِمُمارسة العمل الحُر..
فقال الكهل وهو يبتسم: كم عُمرك يا عزيزي؟
فقال الشاب: لقد اقتربتُ من الثلاثين عاماً..
فرفع الكهل حاجبيه مُعبراً عن الإعجاب وقال: إنه أمرٌ رائع أن تفكِّر بهذا الأمر في هذه السن المُبكِّرة..
فقال الشاب: لكنني أشعر أنني تأخَّرت، لقد مكثت بالخارج خمس سنوات ولا أرى أنني أتقدَّم للأمام في أي اتجاه..

ابتسم الكهل وقال: إن خمس سنوات ليست بالزمن الطويل كما تعتقد، رُبما أنت تشعُر بذلك لأنها أول خمس سنوات لك في حياة الاغتراب، لكن السنين ستمُرُّ سريعاً أكثر من ذلك دون أن تشعُر..
هزَّ صابر رأسه مؤمِّناً عل كلام الكهل وقال: هذا صحيح، فقد كنتُ أعدُّ الأيام والليالي في بداية اغترابي، أما الآن فأنا لا أكاد أُحصي عدد السنوات التي قضيتها بالخارج..

ابتسم الشاب لصابر ثُم وجَّه حديثه نحو الكهل وقال: بغضِّ النظر سواء كانت الخمس سنوات زمناً طويلاً أم قصيراً، ألا تشاركني بأن العمل الحُر أفضل كثيراً من العمل لدى الغير؟

صمت الكهل للحظاتٍ ثُم قال: أعلم أن حُلم أي شخصٍ هو أن يكون مالكاً لنشاطٍ يُدرُّ عليه أرباحاً أعلى بكثيرٍ من تللك الأموال التي قد يتقاضاها إذا عمل موظفاً لدى الغير، وهو بالتأكيد أمرٌ رائع يجعل من الإنسان حُراً في قراراته ومصيره بدلاً من القيود التي تفرضها الوظيفة، لكن الخطورة في هذه الحالة على صاحب العمل تكون كبيرة، وسيعيش مهموماً بشكلٍ مُتواصل؛ بسبب أنه قد أصبح مسؤولاً عن العديد من العُمَّال والموظَّفين الذين يتاقضون أجوراً شهريةً بغضِّ النظر عن المكسب والخسارة، وبغضِّ النظر عن وجود عملٍ يتحمَّلون به أم لا، كما أن الموظَّف هُنا في هذه الحالة لا يحمل هماً للتسويق وصراعات السوق والتمويل المالي وخلافه، وسيتقاضى في النهاية راتبه الشهري، أما صاحب العمل فهو الشخص الذي يحمل فوق رأسه كل تلك المسؤليات والالتزامات، وقد لا يستطيع النوم بسبب ثقلها وهمومها، وكُلُّ ذلك على أمل أن يتحصَّل على أرباحٍ كبيرة في النهاية..

فقال الشاب: أدري أن المسؤولية تكون كبيرة، لكن بالتأكيد العائد يستحق..

قال الكهل: بالطبع يستحق، بشرط أن تتأكد من جدوى النشاط، وأن تكون مُلمَّاً بتفاصيل تكاليفه وأرباحه، وذلك لكي تضمن إلى حدٍ ما أن يكون النشاطُ مُربحاً، وأن يُدرَّ عليك أرباحاً تفوق قيمة الفوائد البنكية، وإلا فإنه من الأفضل أن تترُك مُدخراتك بالبنوك ليقوموا هُم بتشغيلها في مشروعاتٍ

مضمونة الأرباح وتتحصل أنت على الفوائد المالية دون عناءٍ أو تعب..
فقال الشاب: نعم أعرف ذلك، فلا حاجة لنشاطٍ لا يُدرُّ أرباحاً تفوق الأرباح البنكية، فالمجهود الذي سيُبذل لا بُدَّ أن يكون له ثمنٌ هو الآخر..
قال الكهل: هذا صحيح..
فقال الشاب: لديَّ أسباب أُخرى شخصية واجتماعية تجعلني أُريد أن أعود إلى الوطن لأبدأ مشروعاً خاصاً هُناك، وذلك بالإضافة إلى الأسباب المادية التي نتحدَّث عنها الآن أيضاً، فالعمل الحُر هو هدفي الأسمى في حياتي..
قال الكهل: أُحييك على تلك الهمَّة وعلى ذلك الإصرار..

فقال صابر موجِّهاً حديثه نحو الشاب: وهل ما زلت تُريد أن تفتتح مشروعك الخاص في أرض الوطن؟
فقال الشاب: بالطبع نعم، وهل يوجد حلٌّ آخر؟
فقال صابر: لهذ السبب أردتُ أن تنضمَّ لحديثنا هذا، توجد هُنا تجربةً فريدة قد تُفيدك إذا سمعت بتفاصيلها، فهذا الرجل العظيم -وأشار إلى الكهل- يمتلك إحدى الشركات هُناك حيث نُسافر..
رفع الشاب حاجبيه وقال: حقاً يا سيدي؟ إن هذا أمرٌ عجيب..

ابتسم الكهل وقال: وما العجيب في ذلك؟ لقد كنتُ مثلك ذات يومٍ، كنتُ أعمل موظفاً لدى الغير، ثُم قرَّرت أن أستفيد من مُدَّخراتي لأكوِّن شركةً خاصةً بي، وقد كان..
فقال صابر: وأعتقد أنك وجدت أن افتتاح شركتك الخاصة بالخارج كان أفضل من افتتاحها بالوطن، أليس كذلك يا سيدي؟
ابتسم الكهل وقال: وكيف عرفت ذلك؟

فقال صابر: أعرف من زُملائي بالعمل أن حجم السوق بالخارج أكبر بكثير مما عليه في وطننا. لذلك استنتجت أنك فضَّلت أن تُنشئ شركتك الخاصة بالخارج، وهذا ما أُريد أن يعرفه عزيزنا الشاب هذا لعله يُغيِّر من وجهة نظره..

فقال الشاب: أتعني أنه من الأفضل أن أفتتح مشروعي الخاص بالخارج؟ لقد قُلت لك إنني سئمت الغُربة بكُلِّ ما فيها. فكيف لي أن أزيد من ارتباطي بها إلى ذلك الحد؟ إن افتتاحي لأي مشروعٍ خاص بالخارج سيجعلُني مُرتبطاً بالبقاء هُناك مدى الحياة..

فقال صابر موجِّهاً حديثه إلى الكهل: فلتحكُم أنت بيننا إذاً يا سيدي، من منا على صواب؟

ابتسم الكهل وهزَّ رأسه قليلاً ثُم قال: لكُل اختيار تبعاته ومسؤولياته..

فقال صابر: أليس صحيحاً أنك افتتحت شركتك بالخارج؛ لأن حجم السوق أفضل من الوطن؟

فقال الكهل: هذا صحيح، فالسوق الخارجي كبيرٌ جداً وهو أكثر استقراراً ونمواً..

فقال صابر: ذكَّرتني بشيء مهمٍ يا سيدي.. لَمْ تقُل لي بعد كيف افتتحت شركتك الخاصة منذُ خمس سنوات بينما القانون الذي يسمح بذلك قد صدر منذُ عامين فقط؟

ابتسم الكهل وقال: لم تنسَ شيئاً يا عزيزي..

هزَّ الكهل رأسه فانتبه إليه صابر والشاب، فقال الكهل: حسناً، إنها حكايةٌ طويلةٌ وغريبة، لم يكُن مسموحاً هُناك في ذلك البلد أن يفتتح الشخص الأجنبي أي نشاطٍ خاصٍ به، وكان هُناك أمران دفعاني أنا وغيري لأن نسلك طريقاً غير شرعي لافتتاح شركاتنا الخاصة..

انتبه صابر والشاب أكثر، فاستأنف الكهل قائلاً: كان الأمر الأول هو أنني سئمتُ العمل لدى الآخرين، وكان لديَّ من المُدَّخرات ما يُعينُني على افتتاح شركتي الخاصة، وبما أنني مُقيمٌ بالخارج وعملت هُناك لسنواتٍ طويلة، فقد كانت خبرتي كُلها متوافقةً تماماً مع السوق الخارجي، وكنتُ أعرف كل تفاصيله وخباياه، كما أن جميع علاقاتي واتصالاتي مع العُملاء والموَرِّدين كانت كُلها بالخارج أيضاً. أما كُلُّ ذلك داخل الوطن فقد كنتُ لا أعرف عنه شيئاً، فقد عشت بعيداً عن الوطن لسنواتٍ طويلةٍ كانت كفيلةً بأن أجهل خبايا السوق داخل الوطن، كما أن علاقاتي كُلها كانت قد تقطَّعت هُنا ولم يعُد أحدٌ يعلم عني شيئاً..

أخذ الكهل نفساً عميقاً ثُم قال: كان ذلك هو السبب الأول، أما السبب الثاني فقد كان يخُصُّ مواطني البلد الخليجي هُناك، فقد كان هُناك العديد من المواطنين الذين يمتلكون فائضاً من المُدَّخرات ويريدون أن يستثمروها في نفس المجالات التي نعملُ بها، لكِنّهم لم تكُن لديهم الخبرة التي تُمكِّنهم من افتتاح شركاتهم بمُفردهم وكذلك إدارتها، ومن هُنا تلاقت رغباتنا سوياً، فأنا أُريد أن أفتتح شركتي الخاصة هُناك، لكنني لا أستطيع عمل ذلك وفقاً للقوانين، وكان هُناك أحد المواطنين يُريد أن يفتتح شركةً خاصةً في نفس المجال لكنه يفتقد إلى الخبرة، فاتفقتُ أنا وهو على أن نتشارك، شريطة ألا يظهر اسمي في أية سجلاتٍ رسميةٍ هُناك؛ لأن ذلك سيُعرّضنا سوياً إلى المُساءلة القانونية والعقاب الجسيم..

فتح كُلٌّ من صابر والشاب فاهه من فرط الدهشة، وقال صابر: الآن فهمت، فقد افتتحت شركتك منذُ خمس سنواتٍ بطريقة غير شرعية، ثُم صدر القانون الذي يسمح لك بعمل ذلك منذُ عامين فقط..

قال الكهل: أجل..

وقال الشاب: ولكن كيف لك أن تضمن حقوقك المادية في هذه الحالة؟ لقد استثمرت أموالك هُناك دون أي إثباتٍ رسمي على الإطلاق..

فقال الكهل: لم يكُن شريكي رجُلاً مجهولاً بالنسبة لي، فقد كنتُ أعرفه قبل شراكتي معه وأعرف أخلاقه وصفاته جيداً، وكانت الشراكة تفرضُ علينا أن نظل مربوطين ببعضنا بعضاً، فهو لا يستطيع أن يُدير الشركة من دوني، وأنا لن أحصل على فُرصة العمل هُناك من دونه، لقد كُنا مُكملين لبعضنا بعضاً، وكان من الصعب أن يغدر بي..

فقال الشاب: رُبما كُنت أنت محظوظاً بعض الشيء يا سيدي، فكثيراً ما سمعت عن حالاتٍ كثيرة قد يطمع فيها المواطن، فيستولي على الشركة ويطرد الشخص الأجنبي الوافد، مُستغلاً أن الأوراق والمُستندات الرسمية كُلها باسم المواطن، وبالتالي فإن الأجنبي لن يستطيع أن يُثبت شيئاً..

قال الكهل: هذا صحيح، إن هذا الوضع خطير وغير مُتكافئ، ويظلُّ الواحد منا مُهدداً طيلة الوقت، وتعتمد استمراريتنا فقط على حُسن أخلاق ونوايا ذلك المواطن..

فقال صابر: ونحمد الله أنه قد صدرت قوانين جديدة تُمكِّن الأجنبي من أن يفتتح شركته الخاصة في النور وبشكلٍ قانوني يضمن له حقوقه..

أطلق الكهل تنهيدةً طويلةً وقال: لقد تحسَّن الوضع كثيراً الآن بالطبع، لكنني كانت لي قصةٌ أُخرى..

قال الشاب: خيراً؟ ماذا حدث؟

فقال الكهل: لقد كان كُل شيء يسير على ما يُرام، وكانت الشركة في عامها الثاني قد بدأت في تثبيت أقدامها هُناك، وكانت الأرباح مُجزيةً للغاية، وكان

شريكي يُعطيني حقوقي المالية بانتظام، ولكن فجأةً ودون مُقدمات، مات شريكي في حادث أليم على أحد الطُرق السريعة هُناك، وهو ما أربك الشركة للغاية وخسف بها إلى الأسفل..

قال الشاب: يا للهول!

فقال الكهل: لقد كانت مُستندات الشركة تحمل اسم شريكي. وكان هو المُفوَّض بالتوقيع على كل الأمور الإدارية والحكومية والبنكية. ولكي تنتقل تلك السُلطات إلى الورثة أو من يُمثلهم، فإن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً. ولذلك فقد تعثَّرت أعمال الشركة وكادت أن تتوقف، إنها توقَّفت بالفعل..

فقال الشاب: وماذا عن حقوقك المالية في الشركة حينئذٍ؟

قال الكهل: وفقاً للشرع، فقد آلت ملكية الشركة إلى زوجة شريكي وأولاده الصغار، فقد كان كُلُّ شيءٍ مُسجلاً باسم شريكي رحمه الله..

فقال الشاب: لا حول ولا قوة إلا بالله..

فقال الكهل: لقد كانت زوجة شريكي تعرف مقدار نصيبي في الشركة بالضبط. لكنها لم تكُن لتستطيع أن تنتزع ما آل لأولادها لتُعطيني إياه، كما أن نصيبها الذي آل إليها من الشركة لم يكُن ليُغطي قيمة نصيبي..

قال الشاب: وماذا فعلت إذاً؟

قال الكهل: لقد كانت زوجة شريكي على استعدادٍ لأن تفعل أي شيءٍ لكي تعطيني حقوقي، لكنها كانت مُقيدةً للغاية. فكُلُّ ما آل إليها من ميراثٍ كان لا يُغطي ما دفعته أنا في تلك الشركة. وكانت هي في حاجةٍ إلى أموالها لكي تُنفق منها على أولادها..

قال الشاب: يا الله.. يا لها من مأساة..

فقال الكهل: لقد أُسقط في يدي، ولم يكُن هُناك أي إجراءٍ يُمكنني عمله، لذلك فقد احتسبت ما ضاع مني عند الله..

بدا الأسى واضحاً للغاية على وجه صابر والشاب، ومرّت فترةٌ من الصمت، فاستأنف الكهل قائلاً: لقد انهارت الشركة في عامها الثالث، وتلاشى ذكرها من السوق، ثُم كان قراري هو أن أبحث عن وظيفةٍ مرةً أُخرى..

قال الشاب: هذا شعورٌ سيئٌ للغاية..

فقال الكهل: ولكن قبل أن أبدأ في ذلك، صدرت فجأة القوانين الجديدة التي تسمح للأجنبي بالاستثمار هُناك، فعدتُ سريعاً إلى أرض الوطن وقمتُ ببيع كل مُمتلكاتي من عقاراتٍ ونحوها، وعدُتُ مرةً أُخرى إلى هُناك وافتتحتُ شركةً جديدةً بطريقةٍ قانونيةٍ الآن..

بدا السرور على وجه صابر والشاب في آن واحد، ونطقا سوياً وقالا: حمداً لله..

قال الشاب: يا لها من حكايةٍ غريبة، أُحييك يا سيدي على هذه المُثابرة..

قال الكهل: أشكرك يا عزيزي..

فقال الشاب وهو ينظرُ إلى صابر: أعتقد أنك بعد أن سمعت عن تفاصيل هذه المأساة.. قد أصبح لديك رأي جديد، أليس كذلك؟ قل لي الآن.. هل أفتتح مشروعي هُنا أم هُناك؟

احمرَّ وجه صابر خجلاً، وتلعثم قليلاً ثُم قال: فلتفتتحه في المُنتصف يا عزيزي!

ضحك الشاب بشدةٍ، وضحك معه الكهل وصابر، كان صوتُ ضحكاتهم يتردَّدُ في أرجاء الصالة، فسرت همهماتٌ هُنا وهُناك مُعلنةً عن أن عدداً كبيراً من النيام قد استيقظوا بسبب هذا الصوت..

الفصل العاشر

توجَّه صابر نحو بوابة الصالة، وقام بتحية الشُرطي الواقف أمامها، ابتسم له الشُرطي بهدوء، وقال له: كان الله في عونك..

فبادله صابر الابتسام وقال: ما أسهل هذه الجولة، لم يطلب مني أحدٌ أي شيء..

فتعجَّب الشُرطي وقال: ولماذا تُريد الخروج من الصالة إذاً؟

فقال صابر: أريد أن أستطلع الأمر، ماذا عن موعد إقلاع الطائرة؟

فقال الشُرطي وهو يبدو عليه بعضُ الضيق: مع الأسف لا يوجد جديد، فالعُطل ما زال قيد الإصلاح..

قال صابر: يا للحظ السيئ، تصوَّر يا عزيزي.. لقد أتينا إلى المطار قبل موعد إقلاع الطائرة بساعتين أو أكثر، وها قد مرت ثلاث ساعاتٍ أُخرى، لقد كان من المُفترض أن نكون قد وصلنا إلى هُناك الآن، يا له من عُطلٍ لعين..

هزَّ الشُرطي رأسه مُعرباً عن تفهُّمه وقال: في الحقيقة إنه ليس عُطلاً بالمعنى المفهوم، إنهم يقومون بتغيير قطعة غيارٍ مهمةٍ في مُحرِك الطائرة، ولقد

أمضى الفنيون كُل ذلك الوقت في فكِ الجُزء المعطوب فقط، هكذا قال لي أحد موظفي شركة الطيران منذُ قليل..

بدا الاستياء على وجه صابر ثُم قال: كنتُ أظن أنهم قد أوشكوا على الانتهاء من إصلاح العُطل، يبدو أنهم سيتأخَّرون أكثر من ذلك..
قال الشُرطي: ندعو الله أن ينتهوا من عملهم سريعاً، فأنا أُقدِّر حالة الإجهاد التي أنتُم عليها الآن..
قال صابر: يا رب، أتمنَّى أن ينتهي هذا الكابوس سريعاً، شُكراً لك يا عزيزي..
أومأ الشُرطي برأسه مُعرباً عن امتنانه لصابر الذي أدار ظهره للبوابة وتقدَّم خطوتين بداخل الصالة، شبَّك يديه في بعضهما ووضعهما خلفه أسفل ظهره، ورفع رأسه لأعلى وهو يُطلق زفرةً طويلةً، توقَّف صابر دون أن يتحرَّك، وأخذ يجول ببصره داخل الصالة كُلِّها، نظر إلى المكان الذي كان يجلس فيه، فلمح مقعده المواجه للرجُل العجوز وزوجته خالياً، حوَّل بصره على المقعد الثاني المواجه لرجُل الأعمال الكهل، فوجد أن الشاب الأعزب قد جلس فيه يتبادل الحديث مع رجُل الأعمال، شعر بأنه لا يُريد أن يجلس على الإطلاق، رُبما لا يُريد أن يستمع إلى حكاياتٍ جديدة.

سار جانباً لخطواتٍ قليلةٍ إلى أن وصل إلى الجدار الزُجاجي في آخر الصالة، استند إليه بظهره وأخذ يتأمَّل في وجوه المُسافرين الجالسين أمامه، زاغت عيناه نحو نفس المقعد المواجه للرجُل العجوز مرةً أُخرى، أخذ يتصفَّح في وجوه المُحيطين بمكان مقعده الأثير لديه، لمح أولاً وجه الرجُل العجوز وزوجته، تبدو عليهما راحة البال بشكلٍ واضح، لقد مكثا بالخارج قُرابة الثلاثين عاماً وقد تزوَّج أبناؤهما، لم تعُد لديهما أية التزاماتٍ تُطاردهما على الإطلاق، لماذا سيسافران إذاً إلى الخارج من جديد؟ لماذا يحتاجان إلى جمع

أموالٍ إضافية؟ هل هو اعتيادُ الحياة في الخارج؟ أم إنهما صارا وحيدين في الوطن بعد أن شاخ الإخوة ومات الوالدان؟ رُبما أصبحت حياتهما الاجتماعية بالخارج أفضل بكثيرٍ وسط الأصدقاء ومعارف العمل. فكَّر صابر في كُلِّ ذلك ثُم سأل نفسه: هل سيأتي عليه اليومٌ الذي سيكون فيه مُرتاح البال مثلهما هكذا؟ هل سيرى ذلك اليوم الذي يكون فيه قد انتهى من زواج أولاده ليعيش حياةً هادئةً مع زوجته؟ ولكن أين هُم الأولاد؟ بل أين هي الزوجة من الأساس؟ إنه لم يتزوَّج بعدُ حتى الآن: لضيق ذات اليد. وبرغم أنه أفضل حالاً من أقرانه الذين لم يسافروا للعمل بالخارج.

حرَّك صابر رأسه قليلاً فوجد ذلك الشاب الأعزب. لقد قال الشاب إنه يعمل بالخارج منذُ خمس سنوات فقط. ومع ذلك فهو مُستعدٌ لتحمل تكاليف الزواج! كيف يكون ذلك؟ لا بُدَّ أن راتبه الشهري يفوق أضعاف ما يتقاضاه صابر بكُلِّ تأكيد. وإلا فكيف لشابٍ صغيرٍ كهذا أن يدَّخر ذلك المبلغ المالي الكبير الذي يتطلَّبه الزواج؟ سرح بفكره قليلاً فتذكَّر زُملاءه بالعمل هُناك بالخارج. إن ظُروفهم المادية تُطابق ظُروف هذا الشاب تماماً. كثيراً ما سمع من هذا أو ذاك أن أحدهم قد اشترى منزلاً كبيراً ولو بالتقسيط. فرواتبهم العالية تُمكِّنهم من أن يعيشوا حياةً طيبةً بالخارج، بالإضافة إلى قُدرتهم على ادِّخار مبلغٍ آخر يستثمرونه في عقارٍ ما أو في أحد الأعمال التجارية على أرض الوطن.

وذلك الكهل الرائع هو الآخر. لقد استطاع أن يدَّخر الكثير من الأموال، لدرجة أنه أصبح مالكاً لإحدى الشركات بالخارج. تماماً مثل تلك الشركة التي يعمل بها. ورُبما تسوقه الأقدار يوماً ليجد نفسه قد أصبح عاملاً لديه

وتحت إمرته. كيف فعل كُلّ ذلك؟ ما أبعدك يا صابر عن كُلّ هؤلاء، هكذا حدَّث نفسه، وأخذ يقول: كأنني أقارن النجوم البعيدة بكوخٍ يقع على كوكب الأرض، فأنا أبعدُ ما يكون عن هؤلاء بمسافاتٍ بعيدةٍ للغاية، إنهم يدورون في أفلاكٍ لا يُمكنني أن أحلُم بالوصول إليها أو حتى الاقتراب منها.

وجّه صابر بصره إلى اليمين قليلاً فاستقرّت عيناه فجأة على الزوج الشاب وزوجته الشابة، كان كلاهما قد اقترب برأسه من رأس الآخر إلى أن تلامستا تماماً، وبدا أنهما قد انشغلا في حوارٍ عاطفي هامسٍ، كان الحُبُّ واضحاً من شدَّة البريق الذي يلمع في عينيهما معاً، وكانت ابتسامتاهما المرسومتان على شفتيهما برقةٍ تدلان على أنهما في حالة اشتياقٍ مُفعمةٌ بالمشاعر، ويشعرُ الناظِرُ إليهما بأنهما على وشك أن يتبادلا القُبلات الحارّة.

ابتسم صابر من روعة المشهد وكأنه يرى لوحةً فنيةً أو مشهداً سينيمائياً بديعاً، ولكن على الطبيعة، أخذ يُفكِّر في حالهما وقال لنفسه إن كلاهما في حالة حُبٍ؛ لأن ذلك هو الزواج الثاني لكليهما، لقد كان لكُلّ منهما تجربةٌ سابقةٌ أدركا من خلالها أن اختيارهما لشريك العُمر كان خاطئاً للغاية، ولقد عانى كُلٌّ منهما كثيراً بسبب ذلك الاختيار الخاطئ، أما الآن فقد وجد كُلٌّ منهما حُلمه الذي يحلُم به، وفي الحقيقة إن ذلك هو مُنتهى الأمل لأي إنسان على وجه الأرض، يتمنّى الجميع أن يجد حبيب العُمر، لكن ذلك يخضعُ للحظِّ والظُروف وأشياءٍ أخرى عديدة، فها هُما الرجُل العجوز وزوجته يعترفُ كُلٌّ منهما بأن الآخر ليس هو حُلمه، ومع ذلك فهما يعيشان مع بعضهما بعضاً بشكلٍ طبيعي حتى الآن، بينما يختلفُ ذلك تماماً بالنسبة للزوج الشاب وزوجته، فقد حاربا كثيراً حتى تحقق لكُلّ منهما حُلمه، ليعيش كُلٌّ واحدٍ منهما مع حبيبه.

سأل صابر نفسه: كيف سيكون حاله هو إذا تمكَّن من الزواج ذات يومٍ؟ لقد صار يعرف سلفاً أن هُناك ثلاثة احتمالات، أولها هو الاحتمال الصعب الذي لم يُصادفه في حياته حتى الآن، وهو أن تكون زوجته هي حبيبة العُمر. الجميع دائماً يشكون من زوجاتهم حتى في بداية الزواج، يا لهُ من أمرٍ عجيب، ألهذه الدرجة يصعبُ أن تكون الزوجة هي الحبيبة؟ ألهذا الحد يُعاني أغلب الناس؟ يبدو كذلك، حسناً، ولو أن الأمر كذلك بالفعل.. فلِمَ يضعُ الجميع الزواج كهدفٍ رئيسي في حياتهم وأنا معهم؟ ابتسم ابتسامةً خفيفيةً وقال: يبدو أن للزواج سحراً آخر..

أما الاحتمال الثاني فهو أن أكون كالرجُل العجوز ذاك -ووجَّه بصره نحوه هو وزوجته- وحينها لا تكون زوجتي هي حبيبتي وعشيقتي، لكن الحياة بيننا ستسير بشكلٍ عادي..

وأما الاحتمال الثالث -وتوجَّه ببصره نحو الزوج الشاب وزوجته- هو ألا أستسلم إذا كانت الزوجة سيئةً، وأن أبحث عن حبيبة العُمر حتى أجدها، وأن أُحارب الجميع من أجل أن أظفر بها وأعيش معها بقية حياتي..

أخذ صابر يتأمَّل الجميع مُجدداً ثُم بدا على وجهه الاستياء وقال لنفسه: كيف لشخصٍ فقيرٍ مثلي أن يُفكر في الاحتمال الثالث هذا؟ إن زواجي في حد ذاته سيكون صعباً للغاية، ولا بُدَّ لي أن أتحمَّل زوجتي على أي حالٍ كانت، المُهم أن أتمكَّن من الزواج أصلاً.

هزَّ رأسه وهو ما زال على استيائه وقال لنفسه: كم من السنوات تمُر وأنا لا أستطيع أن أقوم بتأسيس منزلٍ هُنا أو هُناك لأتزوَّج فيه؟ ففي كُل عامٍ تتزايد أسعار الأشياء ودائماً تتضاءل القيمةُ الشرائيةُ لمُدخراتي البسيطة، وهو ما يجعلُني أقومُ بتأجيل فكرة زواجي عاماً بعد الآخر، كأنني ألهثُ وراء

الماء في صحراءٍ واسعةٍ، وكُلما اقتربتُ من بئرٍ للمياه أجدهُ خالياً! لن أصل إلى نتيجةٍ لو استمرت حياتي هكذا على ذلك المنوال.

لمعت عيناه فجأةً وقال: لا بُدَّ لي من حلٍ آخر، يجب أن أُغيّر من نمط حياتي تماماً. لن أستطيع أن أختصر السنين كالآخرين إلا لو وجدتُ طريقةً أُضاعفُ بها دخلي، لا بُدَّ أن أفعل شيئاً يجلب لي أموالاً أكثر مما أتحصَّل عليه الآن.

نظر إلى رجُل الأعمال الكهل وقال: بالطبع لا يُمكنُني أن أحلُم الآن بأن أفتتح مشروعاً خاصاً، فأنا لا أملك من المُدخرات ما يعينني على ذلك على الإطلاق..

ثُم نظر إلى الشاب الأعزب وقال: لكنني يُمكنني أن أكون مثل ذلك الشاب لو أنني كنتُ أتقاضى راتباً مثله، ولكن كيف يكون ذلك؟ كيف أكون مثله؟ لا سبيل إلى ذلك سوى أن أدرُس شيئاً جديداً، لا بُدَّ لي من أن ألتحق بأحد المعاهد أو الجامعات، لا بُدَّ لي من أن أحصُل على شهادةٍ دراسيةٍ تُمكّنُني من أن أجد عملاً مرموقاً.

كان يقول ذلك لنفسه وعيناه جاحظتان من فرط تشجيعه لنفسه، وفجأةً، انطفأ بريق عينيه وقال: لكن ذلك سيستغرق أعواماً عديدة، رُبما عامين أو أربعة أعوام، يا لهُ من زمنٍ طويل!

أخذ يُفكِّر بعُمقٍ ثُم قال: يا للاختيار الصعب، هل أُضيعُ أعواماً أُخرى في الدراسة؟ أعلم أنني سأختصر بذلك العديد من الأعوام القادمة عندما أحصُلُ على دخل مادي أفضل، لكنني سأكون قد أضفتُ إلى ما ضاع مني من السنين أعواماً أُخرى حتى أتخرج بالجامعة، وهُنا تكمُن المُشكلة، ماذا عن الأعوام التي ضيعتها بالفعل؟ هل سأُضيف إليها ضياعاً إضافياً؟ أم إنني

سأنقذ الباقي من عُمري إذا أقدمتُ على تلك الخطوة؟ هل أُنفقُ على تلك الدراسة من مُدخراتي البسيطة التي ادخرتها عبر السنين الطويلة الماضية؟ أم إن راتبي الحالي قد يُساعدني على أن أتكفَّل بمصاريف الدراسة؟ يحتاجُ الأمر إلى حساباتٍ دقيقة.. إنها حيرةٌ ما بعدها حيرة.

أخذ نفساً طويلاً جداً، وقام بفرد ذراعيه على آخرهما، ثم نظر في ساعة يده، بدت عليه المُفاجأة وقال وهو يُقطِّبُ عن جبينه: يا الله، لقد مرَّت أربع ساعاتٍ أُخرى على موعد إقلاع الطائرة الأصلي! لم يسمع في حياته عن هذا التأخير الطويل قبل ذلك، فقد سافر كثيراً قبل ذلك ولم يحدُث ذلك أبداً..

هزَّ رأسه يميناً ويساراً مُعرباً عن أسفه بسبب طول ذلك الانتظار، ثُم قال: إنه أمرٌ غريبٌ وغير مفهوم.. ما الذي يُخبؤه لنا القدر في سفرنا هذا هذه المرة؟ فليحفظنا الله..

الفصل الحادي عشر

شعر صابر ببعض الإرهاق فقرّر أن يجلس قليلاً ليُريح جسده المُرهق، نظر إلى المكان الذي كان مُعتاداً أن يجلس فيه ليتأكّد من أنه ما زال خالياً. كان المقعد خالياً بالفعل، فتوجّه إلى هُناك وهو يتجنّب النظر في وجوه المُسافرين، كان يبدو عليه أنه مهموم، ولم يستوقفه أحدٌ ليسأله عن أية معلومة، يبدو أن اليأس قد تملّك من الجميع، لكن يأسه هو مُختلفٌ عنهم.

أوشك صابر على الاقتراب من المكان الذي اعتاد الجلوس فيه، فوجد فجأةً مقعداً خالياً قبل المكان الذي يجلس فيه الزوج الشاب، فقرّر صابر على الفور أن يجلس فيه ليتجنّب أية أحاديث قد يُشارك فيها أو أن يسمعها من الزوج الشاب أو الرجُل العجوز، فقد سمع منهما الكثير وهو ما أصابه بالإحباط. سأل نفسه: ولم الإحباط؟ ما هو الجديد الذي وجده في نفسه بعد سماع كُل تلك الأحاديث؟ لا شيء على الإطلاق، لا يوجد جديد، فقد كان يعلم عن حالته كُلّ شيءٍ، لكنه هو الذي كان ينسى، أو كان يُحاول أن ينسى ويتناسى.

نظر صابر أمامه فوجد فتىً وفتاةً يُشبهان بعضهما كثيراً، يبدو أنهما أخٌ وأخت، يكاد يُجزم بأنهما توأمان؛ لشدة الشبه الواضح بينهما، وكانت تجلس بجوار الفتاة عروس ترتدي فُستان الزفاف الأبيض اللون، اتَّسعت عينا صابر بشدة عندما رآها، وسأل نفسه: كيف أنني لم أر هذه العروس قبل ذلك؟ إن شكلها مُميَّزٌ للغاية بسبب ارتدائها لذلك الفُستان الأبيض بخلاف زينتها الرقيقة الواضحة، يبدو أن ليلة زفافها كانت اليوم، يا للحظ السيئ، لقد تأخَّر موعد إقلاع الطائرة، وسيتسبب ذلك في أنها ستصل إلى هُناك وهي في قمة الإجهاد، وهو ما سيُعكِّر صفو ليلة الزفاف التي كانت تحلُم بها هي وزوجها، ولا شكَّ بأن زوجها هُناك قد ناله الإرهاق والإحباط بسبب تأخُّر موعد وصول الطائرة، وبدلاً من أن تكون ليلة زفافهما ليلةً جميلةً ساحرة، إذا بهما يقضيانها في المطارات هُنا وهُناك.

أحسَّ صابر بأن هُناك من ينظر إليه، فالتفت إلى جواره عن يساره ليجد سيدةً نحيفةً تجلسُ بجواره وتنظرُ إليه، مُعاتبةً إياه على أنه يُمعن النظر هكذا في العروس التي أمامه، احمرَّت وجنتا صابر من الخجل، ونظر نحو الأرض على الفور، لم يكُن يقصد أن يُدقِّق النظر في تلك العروس، لكنه أصابه الشرود وهو يُفكِّر في أمرها وأمر زوجها.

قطع حاجز الصمت بعض الهمهمات والضحكات المكتومة والتي كان مصدرها ذلك الفتى وتلك الفتاة الجالسين أمام صابر، كان يبدو عليهما أنهما يقومان ببعض المُشاغبات ببعضهما، ويبدو أن الفتاة قد خطفت شيئاً ما من أخيها فحاول استعادته، أبعدت الفتاة ذراعها عن أخيها لكي لا يتمكَّن من استعادة ذلك الشيء، فاصطدمت ذراعها بكتف العروس الجالسة بجوارها دون قصد، احمرَّ وجه الفتاة خجلاً بينما ضحك عليها أخوها في الحال، عمَّت الابتسامات وجوه الجميع، بما فيهم صابر والسيدة النحيفة

التي بجواره، بل وابتسمت العروس أيضاً، اعتذرت الفتاة بشدةٍ للعروس، وقبلت العروس اعتذارها، وطمأنتها أنها لم تغضب لذلك.
قالت العروس: يبدو أنكما توأمان، أليس كذلك؟

قالت الفتاة: كُل الناس يظنون أننا توأمان، فنحنُ نتشابه كثيراً في الشكل والحجم، لكننا في الحقيقية لسنا كذلك، فأخي هذا يكبرني بتسعة شهور، لكنهم ألحقونا بالمدرسة سوياً في عامٍ واحدٍ لكي نشُدَّ عضُد بعضنا بعضاً في البداية، ولكي يطمئنوا إلى أننا لا نُعاني من الوحدة مثلما حدث في السابق مع أُختنا التي تكبرنا بعامين، ومنذُ ذلك الحين ونحنُ مُلتصقان ببعضنا بعضاً..
ابتسمت العروس وقالت: إن هذا شيءٌ رائع..
فتدخَّلت السيدة النحيفة وقالت: وهل ما زلتما مع بعضكما في المدرسة حتى الآن حقاً؟ هل توجد هُناك مدارس مُشتركة بين البنين والبنات؟
فقال الفتى: كلا يا سيدتي، لا توجد مدارس مُشتركة هُناك، لكننا نذهب إلى المدرسة ونعود منها سوياً كُل يومٍ، كما أننا ندرس نفس المنهج الدراسي، وهو ما يُساعدنا في أن نُكمل لبعضنا ما يفوتنا أو ينقصنا..

فقالت العروس: وهل أنتما بمُفردكما الآن؟ أين هُم باقي الأهل؟ أم إنكُما ستُسافران وحدكما؟
ابتسمت الفتاة وقالت: أجل، إننا نُسافر بمُفردنا هذه المرة..
فقالت العروس بينما عيناها تتَّسع من الدهشة والإعجاب: حقاً؟ أتُسافران وأنتُما في هذه السن الصغيرة؟
ابتسم الفتى وقال: لسنا صغاراً إلى هذا الحد، فقد اقتربنا من السادسة عشرة..

ابتسمت العروس وقالت بخجلٍ: إن عُمري ثلاثون عاماً، أي أن عُمري هو ضعف عُمركما تقريباً، وها أنا ذا أُسافر لأول مرةٍ بمُفردي..
فقالت السيدة النحيفة وهي تبتسم: يا لشجاعتك يا عزيزتي، إنها المرة الأولى التي أرى فيها امرأةً تعترفُ بعُمرها الحقيقي من تلقاء نفسها..

ابتسمت العروس وقالت: أنا على العكس، لا أجدُ غضاضةً في الاعتراف بذلك، ومهما حاولنا إخفاء عُمرنا الحقيقي، فإن الزمن كفيلٌ بأن يُظهر كُلَّ ذلك بوضوح..
هزَّت السيدة النحيفة رأسها كنايةً عن الموافقة، ثُم وجَّهت سؤالها إلى الفتى والفتاة قائلةً: ولماذا تُسافران بمُفردكما في هذه المرة؟ وأين هي أُختكما الكُبرى؟
نظرت الفتاة نحو أخيها ثُم التفتت مُخاطبةً السيدة النحيفة قائلةً: إن أُختنا ستبقى هُنا بدايةً من العام الدراسي الحالي، فقد التحقت بالجامعة، وكان لا بُدَّ لها من أن تعود إلى هُنا..
فقالت السيدة النحيفة: وهل ستتركونها وحدها هُنا؟
فقالت الفتاة: بالطبع لا، إن أُمي ستبقى معها هي الأُخرى لترعاها..

بدا الاندهاش على وجه السيدة النحيفة وقالت: وماذا عنكما؟ هل ستعيشان من دون أُمكما هُناك؟
فقالت الفتاة: سنعيشُ مع أبينا هُناك، وهو الذي سيرعى شئوننا بدلاً من أمي..
فقاطعها أخوها وهو يضحك قائلاً: في الحقيقة، إننا نحنُ من سنرعاه..
فقالت الفتاة وهي تغمزُ بعينها لأخيها: أجل، سنرعاه بعنايةٍ وحرصٍ، سنرعاه في كُلِّ خطوةٍ يخطوها..

ضحك الفتى بشدةٍ وضحكت أُخته مثله، طالت ضحكاتهما فنظرت السيدة النحيفة إلى العروس وتبادلا نظرةً استفهامٍ لعل الأُخرى قد تفهم سبباً لتلك الضحكات، هزَّت العروس كتفيها مُعربةً عن عدم وجود مُبرّرٍ لذلك، فقالت السيدة النحيفة وهي تبتسم: أضحكونا معكما، فنحنُ في أمسّ الحاجة للترفيه..

فقالت الفتاة: نحنُ نضحك من أمرٍ ما يخصُّ أمنا، لا أُصدِّق أن هُناك من يُفكر بتلك العقلية في هذا العصر..
فقالت السيدة النحيفة وهي ما زالت تُحافظُ على ابتسامتها الهادئة: وما هو ذلك الأمر؟
نظرت الفتاة نحو أخيها كأنها تستشيره، فقالت السيدة النحيفة: لا تتحدثي بذلك الأمر لو كان سراً..
فقال الفتى: إنه ليس سراً بقدر ما أنه أمرٌ مُضحك، كثيراً ما نشعُر بأن أمنا قد جاءت من عصرٍ بعيدٍ للغاية، أو أنها تعيش في مجاهل القرن الماضي، لقد كان مُقرراً أن نعيش بالخارج إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي ستلتحقُ فيه أُختنا بالجامعة، وكانت مُخططاتنا هي أن نعود جميعنا إلى الوطن ونترك أبانا بمفرده هُناك..

فقالت السيدة النحيفة: هذا أمرٌ طبيعي يحدُث لكثيرٍ من المُغتربين..
فقال الفتى: لكن أُمي غيَّرت من رأيها فجأةً، وأصرَّت على ألا أعود أنا وأُختي هذه إلى الوطن، وأرغمتنا على العودة لنعيش مع أبينا هُناك لنستكمل دراستنا، ولا نعود إلا إذا عاد أبونا إلى الوطن، أو أن نصل إلى اليوم الذي لا بُدَّ لنا من العودة فيه لكي نلتحق بالجامعة مثل أُختنا الكُبرى..

بدا الاندهاش على السيدة النحيفة وقالت: وما الحكمة في ذلك القرار؟ لماذا أصرَّت أمكما على ذلك؟ هل بسبب أن المدارس التي أنتم بها هُناك تُقدِّمُ لكما تعليماً ذا جودةٍ عاليةٍ قد لا تجدون مثلها في الوطن؟

فقالت الفتاة: يا ليت ذلك يكون السبب، لكن أمنا كانت تخشى على أبينا من أن تدفعه الوحدة والفراغ إلى أن يتزوَّج بأُخرى هُناك ولو زواجاً مؤقتاً، فقد قالت لنا إن ذلك الزواج المؤقَّت أمرٌ مُتاحٌ وسهلٌ للغاية، وأن العديد من النساء هُناك يُفضِّلن ذلك النوع من الزواج لمرونة شروطه وإمكانية الخروج منه بسهولةٍ عند انتفاء الغرض منه، يبدو أنها قد تأثرت بحكاياتٍ عديدةٍ قد سمعت بها عن ذلك الأمر..
تبادلت السيدة النحيفة والعروس نظرات الدهشة، ثُم قالت السيدة النحيفة: لا أُصدِّق أن أُمكما قد فكَّرت بتلك الطريقة! ما الذي يجعلها تتحدَّث معكما في ذلك الأمر بتلك السهولة وكأنها تُعلن لكليكما أن ثقتها في أبيكما مهزوزةٌ لهذه الدرجة!

فقال الفتى: هذا ما قُلناه لها بالضبط، لقد سألناها فيما بيننا.. هل لاحظت يوماً أن أبانا يقوم بعمل علاقاتٍ عاطفيةٍ خارج المنزل؟ قالت لا، فسألناها من جديد.. هل هو شخصٌ غير مُلتزمٍ على عكس ما يبدو بيننا أو كما عهدناه طيلة حياتنا؟ فقالت أيضاً لا، فسألناها: هل أحسست يوماً بأنه لا يُحبُّك أو أنه لا يهتم بك كما كان في الماضي؟ فقالت بالعكس، إنه دائماً يُحيطني برعايته واهتمامه ولم يُقصر تجاهي في أي شيءٍ..
ابتسمت السيدة النحيفة وقالت: بسم الله ما شاء الله، لا أُصدِّق أنكما بهذه العقلية الناضجة، إنكما تُفنِّدان لها الأمر وكأنكما الكبار الناصحون لها..
فقالت العروس: وماذا كان تبريرها إذاً بعد كُل ذلك؟

فقالت الفتاة: كان تبريرها لا يستند إلى أي منطقٍ على الإطلاق، كُل ما قالته إنها تخشى أن يضعف أبونا بسبب الوحدة. فيلجأ إلى سدِّ فراغ حياته عن طريق الزواج لكي يجد من يُؤنسُ وحدته، أو أن تخدعه إحداهُن فتُغرّر به وتدفعه إلى أن يتزوجها..

ضحكت السيدة النحيفة بشدةٍ، وضحك معها الفتى والفتاة، ثُم قالت: يا لَهُ من تعبيرٍ مُضحكٍ للغاية، تتحدَّثُ أمكما وكأن أباكما شابٌ مُراهقٌ يُمكن التأثير عليه بسهولةٍ، ونسيت أن له بنتاً ناضجةً قد التحقت بالجامعة، وأن لديه أيضاً توأمين جميلين مثلكما رُبما قد أصبحا أكثر منه طولاً..
ابتسم الفتى وقال: إننا جميعاً في نفس طول أبينا الآن، لكننا جميعاً أكثر طولاً من أُمنا بكثير..
فضحكت الفتاة وقالت: ورُبما كان ذلك هو السبب في فُقدانها لثقتها بنفسها..
ابتسمت السيدة النحيفة وقالت: ولكن ماذا كان رأي أبيكما في كُل ذلك؟ هل أخبرتماه عن كُل تلك التفاصيل؟

فقال الفتى: في البداية، كان أبونا مُندهشاً للغاية عندما طلبتْ أُمنا أن نُسافر مرةً أخرى، فقد كانت كُلُّ الاستعدادات قد تمَّت بُناءً على أننا سنعود مع أمنا وأختنا، لدرجة أن كل الأوراق الرسمية والمُستندات كان قد تم إعدادها، وكانت أُمي تراوغه كُلما سألها عن سبب تراجعها عن استكمال ما أعددنا له جميعاً. فما كان منا إلا أننا أوكلنا إلى أُختنا الكُبرى مهمة أن توضح له الأمر بطريقةٍ غير مُباشرة، إن أبي يعشق أُختنا تلك، أعتقد أنه يحبها أكثر من أُمي، فهي الوحيدة التي تُماثله في عقليتها وطريقة تفكيرها. وكانت مُلتصقةً به طول الوقت..

فقالت السيدة النحيفة: هذا أمرٌ نادر، فمن المُعتاد أن تلتصق الابنة الكُبرى بأمها أكثر..

فقالت الفتاة: قلنا لك أن أمنا امرأةٌ تقليديةٌ للغاية، أما أُختنا الكُبرى فهي مُتفتحةٌ وتُشعرك بأنها امرأةٌ كبيرة..
رفعت السيدة النحيفة حاجبيها مُعبرةً عن دهشتها وقالت: ما شاء الله، كُل ذلك رغم أنها ما زالت في السنة الأولى بالجامعة!
فقال الفتى: لا أُخفي عليك يا سيدتي، إننا نعتبرها أُمنا الحقيقية، فهي الأقرب لنا بحق..
ابتسمت السيدة النحيفة وقالت: لا عجب إذاً أن يعشقها أبوكما، ففتاة بمثل هذه المواصفات لا بُدَّ أن يتعلق بها الجميع..

هزَّ الفتى والفتاة رأسيهما بالموافقة، فسألتهما السيدة النحيفة من جديد: وماذا عن أبيكما بعد أن عرف السبب الذي من أجله أصرَّت أُمكما على أن تعودا معه؟
ابتسمت الفتاة وقالت: ضحك أبي كثيراً حينها، وأخذ يتندَّر على أُمي كُلما حادثها أو رآها، وكانت تغضبُ بدلالٍ حيناً وبشدةٍ حيناً آخر، لكنه تصرَّف بحكمةٍ بالغة، ووافق أن نُسافر معه لكي يُثبت لها حُسن نواياه، ولكي يُخفِّف من قلقها ويُريح قلبها..
ابتسمت السيدة النحيفة وقالت: يا له من رجُلٍ مُتسامح، رُبما لو كان شخصاً آخر لثار ثورةً كبيرة ضدها، ورُبما غضب منها بسبب أنها لا تثق به بعد هذا العُمر الطويل المُشترك بينهما..

قال الفتى: لقد استحسن أبي فكرة ألا يظل وحيداً، وقال إنني وأُختي سنملأ عليه حياته بشكلٍ أفضل من أن يعيش وحيداً، لكنه قال لأُختنا الكبيرة

وكأنه يُلقِّنها درساً من دروس الحياة.. إن الرجُل الذي يبحثُ عن امرأةٍ أُخرى غير زوجته لا يحتاج إلى أن يكون وحيداً أو بعيداً عن زوجته الأولى كي يفعل ذلك، ليست الوحدة هي الذي تدفع الرجُل إلى البحث عن زوجةٍ أُخرى، وليس السفر أو بُعد المسافات هو الدافع لأن يخون الرجُل زوجته والعكس، إنه البعاد بين القلوب وليس بين الأجساد، فكم من زوجين يعيشان في فراشٍ واحد لكن المسافة بين قلبيهما من أبعد ما يكون، وكم من حبيبن يعيشان على بُعد آلاف الأميال فيما بينهما، لكن روحيهما ملتصقتان ببعضهما لا تنفصلان أبداً..

بدا الانبهار على وجه السيدة النحيفة، وأخذت نفساً عميقاً ثُم قالت: لا عجب أنكم جميعاً بهذا القدر من النُضج، لقد ورثتم عن أبيكم الحكمة والاتزان، ما أسعدكم بهذا الأب الرائع..

قال الفتى: أشكرك يا سيدتي..

فقالت السيدة النحيفة: الآن أدركتُ سبب غيرة أُمكم على زوجها، إن رجُلاً بمثل هذه الصفات الجميلة سيكونُ مطمعاً للنساء بلا شك، أنتم لا تدرون بعدُ كيف يكون بقية الرجال في هذا العالم، فالرجولة تختلفُ تماماً عن الذكورة، وفي هذا العصر نجدُ الكثير من الذكور لكنهم ليسوا رجالاً، فالرجولة تنبع من الأخلاق لا من الأجساد..

هزَّ الفتى والفتاة رأسيهما بالموافقة على كلام السيدة النحيفة التي نظرت في عيني العروس وقالت: ألا توافقيني الرأي يا عزيزتي؟

تردَّدت العروس قليلاً ثُم قالت: يبدو كلامك منطقياً بالطبع، لكنني لم أقُم بخوض أية تجربةٍ بعد وليست لي خبرةٌ عمليةٌ بمُجتمع الرجال، إنني سأتعامل مع أول رجُلٍ في حياتي عندما تصل الطائرة إلى هُناك..

اتَّسعت ابتسامة السيدة النحيفة وقالت: ولكنك بالتأكيد تعلمين بعض الأشياء عن طباع زوجك. لا بُدَّ وأن فترة الخطبة قد كشفت لك شيئاً ما عن صفاته وتوجُّهاته..
احمرَّ وجه العروس وقالت بتلعثُمٍ واضح: إنها المرة الأولى التي أراه فيها، لم أر سوى صورته فقط..
انزعجت السيدة النحيفة وقالت: ماذا؟ صورته فقط؟ وكيف تزوَّجتِه إذاً؟
تنهّدت العروس وقالت: لقد تزوَّجته عن طريق توكيلٍ رسميٍ قام بعمله لأخيه الأكبر المُقيم هُنا، فقد تعذَّر أن يحصُل على عُطلةٍ من عمله لكي يأتي إلى هُنا؛ وذلك لأن وظيفته حساسةٌ جداً..
فقالت السيدة النحيفة: وكيف تعرَّفت عليه إذاً؟

قالت العروس: لقد تعرَّفتُ على زوجي عن طريق عائلة عمّي، فقد كان عمّي يعمل هُناك بالخارج منذُ سنواتٍ وعاد مؤخراً إلى هُنا، وكانت عائلة زوجي مُقربةً جداً لعائلة عمي، وهُم يعرفون زوجي جيداً منذُ أن كان شاباً..
بدا الاندهاش على وجه السيدة النحيفة وقالت: الصداقة شيء والزواج شيء آخر يا عزيزتي، فرُبما كان الشخص مقبولاً كصديقٍ، لكنه قد لا يتوافق معك كزوجٍ، أليس كذلك؟
نظرت العروس نحو الأرض ثُم قالت في خجل: بالتأكيد..
شعرت السيدة النحيفة أنها قد جرحت العروس فقالت لها: اعذريني يا عزيزتي، لم أقصد أن أُفسد عليك فرحتك بزفافك، أرجو أن تُسامحيني..
رفعت العروس رأسها ونظرت في عيني السيدة النحيفة وقالت: بالعكس، إن كلامك صحيحٌ تماماً، لا أُخفيك سراً إذا قُلتُ لك إنني حتى هذه اللحظة ما زلت أشعر بالتردُّد والخوف من ذلك الزوج المجهول..

بدا الحُزن على وجه السيدة النحيفة وقالت: أما زال مجهولاً لك؟ ألم تتحدثي معه عبر الهاتف؟

قالت العروس: نعم تحدَّثنا كثيراً، لكنني لم أرَ إلا صورة له فقط. لا أتخيَّل كيف يكون شكله على الطبيعة..

قالت السيدة النحيفة: دعك من الشكل والجسم، ما أقصده هو.. ألم تستطيعي أن تُكوِّني فكرةً عن ملامح شخصيته من خلال المكالمات التليفونية بينكما؟

صمتت العروس للحظاتٍ ثُم قالت: لقد كان دائماً رقيقاً معي عبر الهاتف، وكان يُحاول أن يبعث في نفسي الطمأنينة، وكنتُ ألحظُ أنه يحرص على ألا أُصاب بالقلق من أي شيءٍ، إنه حادُّ الذكاء بالتأكيد، فهو يعلم أنه في حاجةٍ لأن يجذبني إليه لكي لا أتردَّد في مسألة زواجي منه عن بُعد، كان دائماً يتهرَّب من كل المسائل الخلافية، وكان دائماً يُبسِّط الأمور ويرضخُ لوجهة نظري إذا وجدها على عكس ما يُريدُه هو..

ابتسمت السيدة النحيفة وقالت: ألا يُعدُّ ذلك أمراً جميلاً؟

ابتسمت العروس ابتسامة استنكارٍ وقالت: من الناحية النظرية هو أمرٌ جميلٌ بلا شك، لكنني لستُ طفلةً صغيرةً يا سيدتي، فأنا في الرابعة والثلاثين من عُمري الآن، وأنا أُدركُ جيداً أنني لن أتمكَّن من معرفة طباع زوجي إلا عندما نختلف، فالخلافات بين الناس هي الوسيلة التي تكشفُ خبايا النفوس، لكن زوجي كان يتجنَّب الخلافات بشكلٍ واضحٍ وهو ما أقلقني أكثر، لقد فوَّت على فُرصة اكتشافه قبل أن أُسافر إليه..

ازدادت ابتسامة السيدة النحيفة وقالت: ولماذا تبحثين عن المشاكل والخلافات يا عزيزتي؟ إن ما تتحدَّثين عنه هو حُلم كُل امرأةٍ، يا ليت كُل الأزواج يكونون كزوجك هذا..

فقالت العروس: ليس الأمر بهذه البساطة، فحالتي أنا مُختلفة، أخشى ما أخشاه أن يكون زوجي قد استدرجني بهذه الطريقة، أي أنه اتبع تلك الخُطة لكي أقبل بالزواج منه وأُسافر إليه، بينما هُناك قد يتكشَّف الوجه الآخر له، فأجد حينها شخصاً مُختلفاً..

قطبت السيدة النحيفة حاجبيها وقالت: غير معقول! ألهذه الدرجة أنت مُتشائمة؟

فقالت العروس: ليس تشاؤماً، لكنني أُفضِّل أن أتوقَّع الأسوأ لكي لا أُصاب بالصدمة إذا تحققت مخاوفي..

صمتت السيدة النحيفة لبُرهةٍ ثُم قالت: إذا كان الأمر كذلك.. لماذا قبلتِ بالزواج الآن؟ لِمَ تسرَّعتِ؟ كان من الأجدر بك أن تؤجِّلي زواجك إلى أن تسنح الظروف لزوجك بالسفر إليك لكي تتعرَّفي عليه أكثر عن قُرب، كان ذلك أفضلَ من أن تعيشي كُل تلك المخاوف..

فقالت العروس: لقد فكَّرت في ذلك الأمر كثيراً، لكن زوجي كان مُتعجِّلاً في طلب إتمام الزواج، وقد كانت ضغوط العائلة لا توصف..

فقالت السيدة النحيفة: أية ضغوطٍ تلك؟

أجابت العروس: إنها ضغوط شبح العنوسة وما أدراك ما العنوسة، قلتُ لك إن عُمري قد جاوز الرابعة والثلاثين، ومع تقدُّم عُمري وسوء الأحوال الاقتصادية في بلادنا، كان عدد المُتقدمين للزواج مني يتناقص بشكلٍ رهيب، لذلك كان عليَّ ألا أُضيع هذه الفُرصة وأن أُقدِّم بعض التنازُلات..

هزَّت السيدة النحيفة رأسها باستياء وقالت: نعم أتفهَّمُ ذلك، إن مُجتمعاتنا لا ترحم الفتيات أبداً إذا تأخَّر زواجهنَّ، وكأن الزواج غايةً في حد ذاته، بل ويتم ذبح تلك الفتيات عن طريق إطلاق لفظ "عانس" عليهن من ناحية، وعن طريق الضغط عليهن لكي يقبلن بأية شروط إذعانٍ لكي يتزوَّجن..
ابتسمت العروس ابتسامةً صفراء وقالت: والغريب في الأمر يا عزيزتي أن العديد من الصديقات والقريبات يحسدْنَني على زواجي هذا، وعندما أُحاول أن أُوضح لهُنَّ وجهة نظري عن مخاوفي تلك.. فإنهنَّ يتهمْنَنِي بأنني لا أعرف قيمة النعمة التي أنا فيها، وأنني يجب أن أحمد الله على تلك الفُرصة النادرة..
هزَّت السيدة النحيفة رأسها بالموافقة، فاستكملت العروس قائلةً: إنني أحمد الله على ما أنا فيه بلا شك، لكنني في نفس الوقت أدعوه ليلاً ونهاراً ألا تتحقق مخاوفي تلك، وألا أجد نفسي أسيرةً هُناك حيثُ لا حول لي ولا قُوة..
قالت السيدة النحيفة بصوتٍ يُغلِّفه الحنان: تفاءلي يا عزيزتي، فبإذن الله سيكون زواجك جميلاً وهادئاً..

قالت العروس: أتمنَّى ذلك، وعلى أية حال، أنا راضيةٌ بقضاء الله أياً كان..
فقالت السيدة النحيفة: ونِعْمَ بالله..
مرَّت فترةٌ طويلةٌ من الصمت ولم يقطعها سوى صوت إحدى المُشاغَبات التي لا تنتهي بين الفتى والفتاة الجالسين بجوار العروس، كانا يتعاركان بسبب لعبةٍ ما يلعبانها، علا صوت ضحكاتهما معاً، فنظرت العروس نحو السيدة النحيفة وهي تبتسم فبادلتها بابتسامة واسعة هي الأُخرى، كأن ابتساماتهما تقولان: ما أجمل تلك الفترة العُمرية حيث صفاء الذهن وراحة البال وخلوّها من المشاكل وتعقيدات الحياة.

ضمَّت السيدة النحيفة شفتيها ثُم قالت للعروس: كم أتمنَّى أن أرى أولادي مثل هذين التوأمين، إنهما من ألطف ما رأت عيناي على الإطلاق..

فقالت العروس: نعم، إن كُل تصرُّفاتهم طريفةٌ للغاية، وهما كالتوأمين تماماً..

نظرت السيدة النحيفة نحو الفتى والفتاة مُجدداً تُتابع مُشاغباتهم وهي تبتسم، فقالت لها العروس: هل لديك أولاد كالتوائم أنت أيضاً؟

أشاحت السيدة النحيفة وجهها نحو العروس وقالت: كلا، إن لديَّ ابناً وبنتاً، لكن هُناك فرقاً كبيراً بين عُمريهما، فالبنت أكبرُ من الولد بخمس سنوات ونصف..

رفعت العروس حاجبيها وقالت: حقاً؟ بارك الله لك فيهما، ولكن أين هُما الآن؟

انطفأت الابتسامة من على وجه السيدة النحيفة وقالت: إنهما مع أبيهما هُناك الآن، وأنا مُسافرةٌ إليهما..

أحسَّت العروس بأن هُناك شيئاً ما، فقالت: هل كنت في زيارةٍ قصيرةٍ إلى هُنا لقضاء أمرٍ ما؟

فقالت السيدة النحيفة: كلا، ليست فترةً قصيرة، إنني هُنا منذُ أسبوعين..

فقالت العروس مُتسائلةً: لا بُدَّ إذاً أنك قد اشتقت إلى الأولاد كثيراً..

قالت السيدة النحيفة وقد بدا عليها الهمُّ: أجل، لقد اشتقتُ إليهما بشدة..

أخذت السيدة النحيفة نفساً طويلاً ثُم أطلقت زفرةً طويلةً تدلُّ على الضيق، فسألتها العروس: وكيف استطاعوا أن يعيشوا وحدهم دونك لمُدة أسبوعين؟ هل هُم مدرَّبون على أعمال المنزل؟

فقالت السيدة النحيفة: بالطبع لا، إنهم لا يستطيعون عمل أي شيء..

فقالت العروس: وماذا فعلوا إذاً؟ من المؤكد أن زوجك كان يتصلُ بك كُل يومٍ ليستشيرك في كُل خطوةٍ..
فقالت السيدة النحيفة: كلا، لم يحدُث ذلك، لم أكُن أستطيع أن أتحدَّث معه، فأنا غاضبةٌ منه..
بدا الانزعاجُ على وجه العروس فقالت: ماذا؟ هل سافرت إلى هُنا لأنك غاضبةٌ منه؟
فقالت السيدة النحيفة: أجل..
فقالت العروس: وما الذي أغضبك منه؟
فابتسمت السيدة النحيفة وقالت: إنها قصةٌ طويلة، المهم أنني غضبت ورحلت..
فسألتها العروس: إذاً حمداً لله أن غضبك هذا لم يستمرّ طويلاً، فُهم يحتاجونك هُناك بالتأكيد..

زادت ابتسامة السيدة النحيفة وقالت: لم ينتهِ غضبي بعد، فأنا ما زلت غاضبةً من زوجي..
اندهشت العروس وقالت: وكيف يكون ذلك؟ كيف تُسافرين الآن بينما تقولين إنك ما زلت غاضبةً منه؟
فقالت السيدة النحيفة: إنني أُسافر الآن مُرغمةً على ذلك ليس أكثر، فأولادي لا يستطيعون العيش من دوني، ولا يُمكنني أن أتركهم في مُعاناتهم تلك أكثر من ذلك، سيؤثر ذلك على مُستواهم الدرامي..
فقالت العروس: على العموم ذلك أفضل لك ولزوجك، فسفرُك هذا سيُقرب من بعضكما كثيراً..
ثم غمزت العروس بعينها وقالت: ورُبما تتصالحان الليلة عندما تصلين إلى هُناك..

فضحكت السيدة النحيفة ضحكةً مُدويةً، وطالت ضحكتها أكثر، ثُم حاولت أن تُسكت تلك الضحكة، وقالت بينما عيناها تمتلئ بالدموع من فرط الضحك: لم أضحك هكذا مُنذ مُدةٍ طويلةٍ.. أشكرك على ذلك..
ابتسمت العروس وقالت: إذاً فقد راقت لك فكرة التصالُح الليلة.. أليس كذلك؟
فقالت السيدة النحيفة: لا ليس كذلك، لا أمل في التصالُح بيني وبين زوجي، وهو يعرفُ ذلك جيداً..
قطبت العروس جبينها وقالت: يا الله.. ولم كُل ذلك؟
تنهّدت السيدة النحيفة وقالت: إنها ليست المرة الأولى التي أُغادر فيها المنزل، لقد تركته ورحلتُ بعيداً عنه عدة مراتٍ قبل ذلك، ولكن أهلي كانوا هُم من يصلحونني عليه في كُل مرةٍ، هُم يعرفون أنني على حقٍ، لكنهم يخشون أن تكون لهم ابنة مُطلقة..
قالت العروس: أيصلُ الأمر للطلاق؟
قالت السيدة النحيفة: وأكثر من ذلك، إنه يخونني يا عزيزتي، أتدرين معنى ذلك؟ إنه يتركني وحيدةً ليعش هو نزواته الحقيرة مع نساءٍ أُخرياتٍ أقلُّ ما يُقال عنهُن إنهنَّ ككلاب الشوارع..
قالت العروس: يا للهول.. لم أتخيَّل أن الأمر كذلك! وما السبب الذي يجعله يفعل ذلك؟ إنك جميلةٌ جداً يا عزيزتي، وقد أنجبت له أولاداً أيضاً، فلماذا يفعل ذلك؟
قالت السيدة النحيفة: يقولون لي إنه مرضٌ نفسيٌ، وهو بالفعل مريض، فالشخصُ الذي يترُك الطعام الحلال النظيف، ويتجه إلى القمامة ليأكُل منها لا بُدَّ أن يكون مريضاً..
قالت العروس: بكُلِّ تأكيد..

فقالت السيدة النحيفة: لقد رآني الجميع وأنا داخل المنزل، وشهد لي كُل الناس بالنظافة والنظام والجمال والهدوء، فأنا أعشق الأعمال المنزلية وإعداد الطعام، كما أنني أهتمُ بدروس الأولاد وأُتابعهم كُل يوم، ومع كُلِّ ذلك فأنا أهتمُ جداً بأناقتي وجمالي داخل المنزل، فلا أرتدي سوى الملابس الرقيقة التي تُبرز جمالي، كما أنني أعتني برائحتي وبنظافتي الشخصية بشكلٍ كبير..

بدا الاندهاش على وجه العروس وقالت: بالإضافة إلى أنك نحيفةٌ أيضاً ولم يزدَدْ وزنك كعادة جميع ربات البيوت الأُخريات..
ابتسمت السيدة النحيفة وقالت: أجل، لقد قطعتُ على نفسي عهداً بأن أُبقى على رشاقتي مثلما كنتُ قبل الزواج، وقد نجحت في ذلك ولله الحمد..
فقالت العروس: لذلك أعود لنفس السؤال، لماذا يخونك زوجك إذاً؟
قالت السيدة النحيفة: لقد خانني مراتٍ عديدة وليس مرةً واحدةً، لن تُصدِّقي إذا قلتُ لك إن خياناته لي قد بدأت منذُ أول عامٍ لزواجنا، لقد كانت صدمتي كبيرةً عندما اكتشفت ذلك، وقد حاول الجميع أن يُقنعوني بأن ذلك هو طيش الشباب وهو أمرٌ عادي! كانت كلماتهم تلك سبباً في أن أفقد ثقتي في الرجال عُموماً، فكيف لمجتمعٍ يرى أن الخيانة أمرٌ عادي أن أثق به؟
فقالت العروس: هل واجهتِه بذلك الأمر عندما اكتشفتِه؟
ابتسمت السيدة النحيفة وقالت: لقد واجهته في كُل مرة كان يفعل فيها ذلك، كنتُ أُحاصرُه وأصرُخ في وجهه لأُحاول أن أعرف لماذا يفعل ذلك؟ كنتُ أسأله ما الذي يعيبني ويدفعه لكي يخونني؟ ما هو الشيء الذي ينقُصني ويجده في هؤلاء الأُخريات؟
فقالت العروس: وماذا كانت إجابته؟

ابتسمت السيدة النحيفة وقالت: لا شيء، كان يعترف بأنني لا يعيبني أي شيء، كان دائماً يقول لي إنه هو المُخطئ، وهو لا يدري لماذا يفعل ذلك..
فقالت العروس: وماذا تعني تلك الإجابة الغريبة؟ أكان مُغيباً عندما خانك مع أُخرى؟ أكان مسحوراً أم ماذا؟
فقالت السيدة النحيفة: كان يظنُّ أن اعترافه قد يجعلني أسامحه، وكان يعتمد على تدخُّل عائلتي وعائلته في كُلِّ مرة، فقد كانت عائلته تُدرك تماماً أنني زوجةٌ رائعةٌ، ولن يجدوا أفضل مني عروساً لابنهم، لذلك كانوا دائماً يهرعون إلى مُصالحتي نيابةً عن ابنهم، فيحرجونني بإلحاحهم عليَّ..
فقالت العروس: وماذا عن أهلك أنت؟

قالت السيدة النحيفة: قُلتُ لك لقد كانوا هُم أيضاً يضغطون عليَّ لكي أُسامح زوجي، وألا أتمسَّك بالخلاف أو طلب الطلاق، فقد كانوا يخشون أن تكون لهم ابنةٌ مُطلقة، وكُل ما يعنيهم هي صورتهم أمام المُجتمع والناس، فكانوا وكأنهم يدوسونني تحت أقدامهم لتبقى هاماتهم مرفوعة، بالإضافة أيضاً إلى إلحاح عائلة زوجي عليهم وعليَّ كما قُلتُ لك..
فقالت العروس: يا لها من مأساة..

نظرت السيدة النحيفة بعيداً وقالت: لكن هذه المرة لم أنتظر أن يضغط عليَّ أحد، إنهم الأولاد من ضغطوا عليَّ، لقد كانوا يتصلون بي كُل يومٍ وهُم يبكون بسبب غيابي عنهم، وقد عانوا كثيراً في طعامهم وملبسهم واستذكار دروسهم، فأبوهم لا يعرف عن أعمال المنزل شيئاً، كما أنه دائمُ الخروج، ولم يستذكر لأولاده دروسهم يوماً طيلة حياتهم..
فسألتها العروس: وهل اعتذر لك من الأساس؟

فابتسمت السيدة النحيفة وقالت: لقد اعتذر لي كثيراً قبل أن أتركهم قبل أن أُسافر، وظلّ بعدها يُحاول أن يتصل بي لكي يعتذر كُل يوم، ولكن ما فائدة تلك الاعتذارات؟ لقد سمعتها مراراً وتكراراً قبل ذلك عدة مراتٍ، وفي كُل مرةٍ كان يقول إنها ستكون المرة الأخيرة، لكن تلك الأخيرة لم تحدُث أبداً..

فقالت العروس: معك حق..

صمتت السيدة النحيفة ثُم انتبهت فجأةً وقالت: لماذا حكيتُ لك كُل ذلك بينما أنت في ليلة زفافك؟ كان لا بُدَّ أن توقفيني عن الكلام..

ابتسمت العروس وقالت: لا عليك يا عزيزتي، ثُم أين هي ليلة الزفاف تلك؟ فكما ترين إنني أقضيها بالمطار!

فقالت السيدة النحيفة: لم يكُن من اللائق أن أحكي لك عن مشاكلي الخاصة لكي لا أُفسد عليك ما أنت مُقبلةٌ عليه، قد يؤثر ذلك على شهيتك تجاه الزواج..

فقالت العروس وهي لا تزال على ابتسامتها: لا تنزعجي يا عزيزتي، فما أنا مُقدمُةٌ عليه أكبرُ بكثيرٍ من كُل ذلك، إنني أواجه المجهول كله في ليلتي هذه..

ابتسمت السيدة النحيفة ابتسامةً تشكُرها بها على مُجاملتها الرقيقة، ثُم قالت: هل معك ساعة يا عزيزتي؟ كم مضى من الوقت حتى الآن؟

هزّت العروس رأسها بالنفي، فتدخّل صابر قائلاً: لقد مرت خمس ساعاتٍ على موعد إقلاع الطائرة يا سيدتي..

فقالت السيدة النحيفة: يا الله.. خمس ساعات! متى سينتهي ذلك الكابوس؟

فقال صابر: سأخرج الآن لأحاول أن أستطلع الأمر.. أتمنّى أن أجد أخباراً سارةً هذه المرة..

الفصل الثاني عشر

كان صابر سعيداً في هذه الجولة، ولِمَ لا وقد استعاد فيها أمرين أحبَّهما كثيراً، أولهما هو زيادة عدد المشروبات التي طلبها الرُّكاب عن المرَّتين السابقتين، وثانيهما هو ذلك الاهتمام والاحترام بسبب تلهُّف الجميع على مُناداته؛ للسؤال عن أحوال إصلاح العُطل الذي أصاب الطائرة، كان يُطمئنُ الجميع بأن الإصلاح قد شارف على الإنتهاء، ورُبما يكون الإقلاع بعد ساعةٍ من الآن، وهو ما أسعد الجميع بلا شك، وكان صابر أكثرهم سعادةً؛ لأنه أدخل الأمل في نفوسهم، بينما في الحقيقة هو يعلم أن ما يقوله ليس من المعلومات المؤكَّدة على الإطلاق، فكُلُّ ما قالوه له خارج الصالة أن الإصلاح قد قطعوا فيه شوطاً طويلاً وقد قارب على نهايته، ليس أكثر من ذلك.

كان صابر قد بدأ جولته بتوزيع المشروبات في الأماكن البعيدة عن المكان الذي اعتاد الجُلوس فيه، ثُم اختتم جولته عند تلك المجموعة التي تجلس حول الرجُل العجوز وزوجته، كان عدد المشروبات كبيراً، فاستخدم لحملها صينيةً كبيرةً كان قد أخذها من المقهى الذي يُحضر منه المشروبات، وكان

يحملها كالنادل المُحترف بيدٍ واحدةٍ من أسفلها مُرتكزةً على كف يده، وكان يستمتع بأن يُحرِّكها في الفراغ، مُبرزاً مهارته في حمل صينية كبيرةٍ كهذه دون أن تتساقط الأكواب من على سطحها.

استوقفه أحدُ الشباب ليمنحه ثمن المشروبات التي أخذها هو وأسرته، وأعطاه ورقةً نقديةً ذات فئة المائة جنيه، وقال له: أعذرني يا عزيزي، لا يوجد معي أوراق نقديةً ذات الفئات الأصغر من ذلك..
فكَّر صابر قليلاً ثُم قال: لا عليك يا عزيزي، فأنا أمتلك الباقي الذي تحتاجه..
حاول صابر أن يُدخل يده الأُخرى الخالية في جيبه ليستخرج النُقود منها، لكن الأمر كان صعباً للغاية، فهو يحتاج إلى أن يستخدم كلتا يديه معاً ليستخرج الأوراق النقدية ويقوم بفردها وعدِّها، تردَّد صابر للحظاتٍ وهو ينظر حوله باحثاً عن مكانٍ يضع فيه الصينية الكبيرة فلم يجد، رفع رأسه نحو الشاب وكاد أن يطلب منه أن يُساعده ليحمل عنه الصينية الكبيرة ريثما يستخرج النُقود من جيبه، وقبل أن يتفوَّه بأي كلمةٍ، نهضت فجأةً إحدى الشابات من مكانها وقالت له: دعني أنا أحملها عنك..

بدت الدهشة على وجه صابر وقال: ماذا؟ إنها ثقيلة الوزن يا عزيزتي..
لم تُعره الشابة اهتماماً وأمسكت بطرفي الصينية بكلتا يديها وقالت وهي تبتسم: كلا إنها عادية، هاتها، يُمكنني أن أحمل ما هو أثقل من ذلك..
اتَّسعت عينا صابر من الدهشة وهو يراها تسحب الصينية منه، ثُم بسطت كف يدها ووضعته أسفل الصينية لتحملها عليه، وأخذت تُحرِّكها في الفراغ مثلما كان يفعل، فتح صابر فاه في دهشةٍ وانبهارٍ، بينما أخذت هي تضحك بسبب اندهاشه ذاك، وأخذت تستعرض مهاراتها في تحريك الصينية في الفراغ، تنبَّه صابر إلى أن الشاب الآخر ما زال واقفاً وينتظر باقي نُقوده،

فأخرج من جيبه النُقود بسُرعةٍ وأعطاها له، ثُم توجَّه نحو تلك الشابة ليستعيد منها الصينية وقال: أشكرك يا عزيزتي، إنك بارعةٌ للغاية..

أطلقت الشابة ضحكةً طويلةً جميلةً هزَّت كيان صابر، فبدا الاحمرار على وجنتيه من شدة الخجل، وكان ما زال على حالة الاندهاش من طريقتها في حمل الصينية بنفس طريقة النادل المُحترف، أخذ منها الصينية وهزَّ رأسه شاكراً، ثُمّ استدار ليستكمل توزيع باقي المشروبات ورأسه مشغولٌ بها وقد أصابه الإبهار والوهم، وما أن انتهى من توزيع المشروبات حتى وجد نفسه ينظر بتلقائيةٍ على الفور إلى حيث تجلس تلك الشابة، كانت تجلس وبجوارها منضدة صغيرةً مُثبتةً بين المقاعد وخاليةً من أي شيءٍ عليها، كيف أنه لم يرها قبل ذلك! توجَّه نحوها بسُرعةٍ، فرأته وابتسمت ابتسامةً جميلةً، تشجَّع صابر واقترب منها ثُم جلس على المنضدة الخالية بجوارها، لم يستأذن منها أو يُصِبْه الخجل، كان كالمسحور الذي يتحرَّك بتلقائيةٍ شديدةٍ.

تردَّد صابر للحظةٍ ثُم التفت إليها وقال: لا بُدَّ أن تُخبريني يا عزيزتي، كيف لك بتلك المهارة العجيبة في حمل المشروبات هكذا؟

ضحكت الشابة نفس ضحكتها السابقة وقالت: وهل كنتُ تظُنُّ أنك الوحيد هُنا الذي يمتلكُ تلك المهارة؟

فقال: إنها وظيفتي، لذلك فأنا أجيدها جيداً، لكن كيف لك أنت أن تفعلي ذلك؟

هزَّت الشابة رأسها يميناً ويساراً وقالت وكأنها تُحيره أكثر: وماذا تعمل أنت؟ هل تعمل نادلاً في مطعم؟

قال صابر: كلا، أنا أعملُ ساعياً في إحدى الشركات، وأقوم هُناك بإعداد المشروبات والأطعمة وأُقدِّمها للموظفين..

فقالت الشابة: إذاً فالجُزء الأكبر من عملك تقضيه كأنك نادل..
قال صابر: أجل.. هلا أخبرتِني عن سرِّ مهارتك أنت؟
فقالت الشابة وهي تبتسم بشدةٍ: أنا أيضاً أقضي الجُزء الأكبر من عملي كنادلة..
قال صابر: حقاً؟ كيف يكون ذلك؟
فقالت الشابة: أعملُ كمُديرة منزلٍ في قُصر أحد الأغنياء..
بدا الاندهاش على صابر وقال: مُديرةُ منزل؟ وماذا يعني ذلك؟
قالت الشابة: أنا مسؤولةٌ عن التنظيف والترتيب وتلك الأشياء..
فقال صابر: فهمت، إذاً فأنت ترأسين مجموعةً من الخدم والطباخين..
صمتت الشابة لفترةٍ ثُم أطلقت تنهيدةً طويلةً وقالت في خجلٍ: في الحقيقة.. أنا أعملُ خادمةً هُناك، أنا الوحيدة هُناك..

صمت صابر للحظةٍ ثُم قال: لا يعيب العمل لأي شخصٍ ما دام أنه عملٌ شريفٌ..
فقالت الشابة: لا أدري لماذا أعترفُ لك بذلك..
فقال صابر وهو يبتسم: لأنك شعرت أن مُستوانا مُتقارب..
ابتسمت الشابة ابتسامة امتنانٍ، فقال صابر: لكن كيف وجدتِ هذا العمل النادر؟ إن أغلب من يعملون بخدمة المنازل هُناك يكونون من الجنسيات الآسيوية..
قالت الشابة: في الحقيقة، لقد سافرتُ إلى هُناك على أساس أنني مُدرّسةٌ ولستُ خادمة..

بدت الغرابة على وجه صابر فقال: ما هذا التعقيد؟ كيف ذلك؟
قالت الشابة: لقد كنتُ أحتاج إلى العمل بالخارج بشدةٍ، فأنا من أُسرةٍ فقيرةٍ كبيرة العدد، ووالدي أصبح كبيراً ولا يقدر على أن يقوم بتلك الالتزامات المالية الضخمة، وأنا أكبر أبنائه، فكان لا بُدَّ لي من أن أجد عملاً مُجزياً مادياً كي أُساعد أبي وعائلتي، وكي أساعد نفسي أنا أيضاً..
فقال صابر: أتفهّم ذلك، ولكن ما علاقة التدريس بالخدمة في المنازل؟
قالت الشابة وهي تبتسم: أعلم أنه أمرٌ غريب، لقد وجدتُ تلك الوظيفة عن طريق إحدى الصديقات التي تعمل هُناك بالخارج، كانت زميلةً لي في دراستي وسافرت إلى هُناك مع زوجها منذُ سنواتٍ طويلةٍ، كان زوجها يعمل مُدرّساً في إحدى المدارس، وكان مالك تلك المدرسة يحتاجُ إلى خادمةٍ لمنزله، لكنه كان يُريد أن تكون تلك الخادمة مُسلمة الديانة وتتحدَّث اللغة العربية؛ لأنها ستقوم على خدمة زوجته المريضة في الأساس، بالإضافة إلى باقي الأعمال المنزلية..

فقال صابر: فعرض عليك زوج صديقتك أن تعملي بتلك الوظيفة..
قالت الشابة: أجل، ولذلك فقد كان من السهل أن يستخرج لي مالك المدرسة تأشيرة استقدامٍ على أنني مُدرسةٌ ولستُ خادمة..
فقال صابر: وهل كان ذلك أكثر سهولةٍ له بدلاً من أن يستخرج تأشيرة استقدام لخادمة؟
قالت الشابة: يبدو ذلك، لم يكُن يعنيني نوع تأشيرة الاستقدام. كان كُلُّ ما يهمُّني هو أن ألتحق بتلك الوظيفة، وكان الأهم من كُل ذلك هو أن نوع تلك التأشيرة قد سهّلت عليَّ مُهمة إقناع والدي، فقد أطلعته على المُستندات واطمأنَّ إلى أنني سأعملُ مُدرّسةً هُناك..

قال صابر مُندهشاً: ماذا؟ هل أخفيت الحقيقة عنه؟
قالت الشابة: أجل، لم يكُن والدي ليوافق على أن أُسافر للعمل كخادمةٍ هُناك..
هزَّ صابر رأسه متفهماً وقال: متى كان ذلك؟
قالت الشابة: أنا أعمل هُناك منذُ أربع سنواتٍ..
فابتسم صابر وقال: أنا أعمل هُناك منذُ ثماني سنواتٍ..
هزَّت الشابة رأسها وقالت: لقد شعرتُ بالعام الأول فقط، ثُم تشابهت السنوات بعد ذلك..
فقال صابر: كيف وجدتِ العمل هُناك لدى هؤلاء الناس؟ هل هو مُريحٌ؟
تنهَّدت الشابة بعُمقٍ ثُم قالت: لا توجد لديَّ إجابةٌ مُحددةٌ، أحياناً تكون مُعاملتهم عادية، وأحياناً أُخرى لا يكونوا كذلك، وأحياناً أراهُم في مُنتهى السوء في موقفٍ ما بينما أرى نفس الموقف ذاته هيناً في وقتٍ آخر، المُشكلة هي أنا، فأنا في كلتا الحالتين مُضطرَّةٌ لأن أقبل أي شيءٍ، فأنا أحتاجُ لهذا العمل بشدةٍ؛ لأنني في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى المال، وخُصوصاً بعد أن صرتُ أنا المُموِّل الرئيسي لاحتياجات عائلتي وإخوتي، لستُ في موقعٍ يسمح لي بالتقييم والاختيار، رُبَّما لو كنتُ حُرَّةً في قراري لكنتُ استطعت أن أرى الأُمور جيداً، فرُبما كانت مُعاملتهم رائعةً لكنني أراها عكس ذلك؛ بسبب أنني مُقيَّدةٌ..
ابتسم صابر وقال: إذاً فمُعاملتهم سيئةٌ يا عزيزتي، إنك تُحاولين أن تُهوِّني الأمر على نفسك، أما الحقيقة فهي أنهم يستغلُّون حاجتك إلى ذلك العمل وهُم يعرفون مدى حاجتك تلك، لذلك فهُم يضغطون عليك كما يشاؤون بينما هُم مُتأكدون من أنك ستتقبلين بتلك الضغوط، وأنت مُجبرةٌ؛ لأنك لا يوجد لديك خيارٌ آخر..

بدا الاستياء على وجه الشابة، فقال صابر: أعتذر لك يا عزيزتي، لم أقصد أن أصيبك بالضيق..

قالت الشابة بصوتٍ مبحوحٍ: لا عليك يا عزيزي، إنك مُحقٌ فيما تقوله على أي حالٍ..

فقال صابر وهو ينظر إلى الفراغ أمامه: أتدرين يا عزيزتي، إن أسوأ ما في الحياة هو أن تنعدم الإختيارات، أن يكون أمامك طريقٌ واحدٌ سيئٌ ولا مفرَّ من السير فيه هو وحده، فأنا مثلك أيضاً لا أُحبُ وظيفتي لكنني مُرغمٌ على القبول بها..

قالت الشابة: أجل يا عزيزي، ما أسوأ أن يُفرض عليك ما تكرهه..

فقال صابر: بل وهُناك ما هو أسوأ من ذلك أيضاً، وهو أن مُحاولة تغيير الطريق تكاد تكون مُستحيلة، أو باهظة الثمن بشكلٍ تعجيزي..

هزّت الشابة رأسها بالموافقة وقالت: كيف حصلت على وظيفتك تلك هُناك؟

تنهّد صابر بشدةٍ وقال: يا لها من حكاية مؤلمة..

ثُم صمت قليلاً واستكمل قائلاً: كان ذلك بعد أن أنهيت مرحلة التعليم المُتوسط، وبعد أن التحقتُ بالخدمة العسكرية لمُدة عامٍ كاملٍ، لأخرج بعدها إلى الحياة مُحاولاً أن أجد فُرصة عملٍ مُناسبةٍ دون جدوى، أو أنني كنتُ أجد بعض الوظائف ذات الراتب الضئيل للغاية، لذلك أصبح السفر إلى الخارج هو الملجأ الوحيد لحالتي تلك..

أخذ نفساً عميقاً ثُم قال: كانت أسهل وأسرع طريقةٍ للسفر هي أن أقوم بشراء تأشيرة العمل من أحد تُجار التأشيرات، لقد صُعقت عندما عرفت أن ثمن التأشيرة الواحدة يبلُغ عشرين ألفاً من الجنيهات! وكان ذلك لأقل درجةٍ من درجات التأشيرات وهي تأشيرة العامل العادي، الغريب أن ذلك الثمن

أصبح يزداد كُل عامٍ بعد ذلك إلى أن وصل إلى ثلاثين ألفاً في عامنا هذا، تخيلي!

قالت الشابة: يا الله! لقد سمعت بذلك، لكنني لم أكُن أعرف ما هو سعر التأشيرات الآن..

قال صابر: لقد اقترضتُ ذلك المبلغ من العديد من الأقارب، وكان ذلك على وعدٍ مني بأن أقوم بسداد ذلك المبلغ على أقساطٍ شهريةٍ بعدما أُسافر وأعمل هُناك بالخارج، وكان بصُحبتي أحد الأصدقاء لكنَّه كان أفضل حظاً مني، فقد باع والده رُقعة أرضٍ زراعيةٍ صغيرةٍ كان قد ورثها عن أبيه، وذلك لكي يستطيع أن يُسدِّد قيمة التأشيرة وقيمة تذكرة السفر له هو الآخر..

بدا الاستياء بشدةٍ على وجه الشابة، وقالت: يا للخسارة..

فقال صابر: لقد حدث كُل ذلك ونحنُ في خوفٍ شديد من أن يكون تاجر التأشيرات ذاك مُحتالاً، فقد سمعنا كثيراً عن العديد من تُجار التأشيرات الذين يحتالون على البُسطاء ويوهمونهم بفُرص العمل الرغدة بالخارج، ثُم يختفون ويهربون بعد أن يجمعوا أموال الراغبين في السفر للعمل..

قالت الشابة: يا للهول!

قال صابر: لقد حاولنا أن نتأكَّد كثيراً من هوية ذلك التاجر الذي تعاملنا معه، لكن كُل أموره كانت مُريبةً للغاية، ولم يكُن لدينا أية وسيلة لكي نضمن حقوقنا، لكن الله سلم وحصلنا على التأشيرات بالفعل، ولم يكُن مُحتالاً ولله الحمد..

فقالت الشابة: الحمدُ لله..

فقال صابر: كان ذلك هو نصف الطريق، أما النصف الآخر فكان أكثر إيلاماً، فعندما سافرتُ إلى هُناك، لم تكُن لديّ وظيفة مُحددة لأعمل بها، فقد كانت مُهمة تاجر التأشيرات هي أن أحصل على الإقامة هُناك بطريقةٍ شرعية فقط، لكنه ليس مسؤولاً عن توظيفي، كما أنني اكتشفت أنني سأكون مُلزماً بتسديد أية رسومٍ عندما يأتي موعد تجديد تلك الإقامة..

رفعت الشابة حاجبيها في دهشةٍ وقالت: وماذا فعلت إذاً؟

قال صابر: لقد أعياني البحث عن وظيفةٍ مُناسبةٍ، وظللتُ أبحث وأبحث لمُدة ثلاثة أسابيع حتى شارفت نُقودي على الانتهاء، فكان لزاماً عليّ حينها أن أقبل بأي شيءٍ، وهو ما أنا عليه منذُ ذلك التاريخ وحتى الآن..

فقالت الشابة: لذلك فقد عملت ساعياً..

قال صابر: أجل، هل تخيّلت كيف لي أن أعيش بذلك الراتب الضئيل؟ بل وأقوم باستقطاع جُزءٍ منه كُل شهرٍ لأُرسله إلى أقاربي الذين أقرضوني ثمن تأشيرة العمل؟ لقد احتجتُ إلى عامين ونصف لكي أقوم بسداد ما اقترضته..

فقالت الشابة: عامين ونصف؟ يا له من زمنٍ طويل..

فقال صابر: لقد حاولتُ أن أبحث عن وظيفةٍ أُخرى تكون ذات راتبٍ شهريٍ أفضل مما أتقاضاه الآن، لكن مؤهلاتي الدراسية لم تُساعدني على الترقي إلى وظيفةٍ أفضل..

قالت الشابة: يا لها من تجربةٍ مؤلمة، لقد كنتُ أعتقد أن حكايتي هي الأسوأ بين كُلِّ المُغتربين..

فقال صابر وهو يبتسم: تهون المصائب إذا رأى المرء مُصيبة غيره من الناس..

فقالت الشابة: إنها ليست مُصيبةً يا عزيزي، إنني أُحيي فيك تلك المُثابرة، ومن المؤكد أنك قد اكتسبت من تلك التجرُبة صلابةً وقوةً..

فقال صابر: أجل، لكنني بصدد التفكير في أن أغيّر من واقعي هذا، سأحاول أن أستكمل دراستي في أحد المعاهد أو الجامعات لكي أحصُل على شهادةٍ دراسيةٍ تُساعدني في الحصول على وظيفةٍ أفضل..
بدا الإعجاب على وجه الشابة وقالت: ما شاء الله، يا لهُ من تفكيرٍ إيجابيٍ للغاية، إنه أمرٌ رائعٌ ألا تستسلم للواقع وأن تُحاول أن تُحسّن منه..
فقال صابر: أشكرك يا عزيزتي..
نظر صابر إلى أصابع يديها وقال: يبدو أنك لم تتزوّجي بعد.. أليس كذلك؟
ابتسمت الشابة في خجلٍ وقالت: ألهذا السبب تنظر إلى أصابعي؟
احمرّت وجنتا صابر وقال: إنه الفضول ليس أكثر، لا ألمح خاتماً للزواج في أصابعك..

حرّكت الشابة أصابعها جميعاً في وقتٍ واحدٍ وقالت وهي لا تزال على ابتسامتها: أجل إنني لم أتزوّج بعد، إن أمثالنا من الفُقراء لا يتزوّجون بسهولةٍ يا عزيزي..
ابتسم صابر ابتسامةً صغيرة وهزّ رأسه في صمتٍ، فقالت الشابة: وأنت؟
فقال صابر: وأنا ماذا؟
فقالت الشابة: ألم تتزوّج بعد؟
ابتسم صابر ابتسامةً واسعةً وقال: إن أمثالنا من الفُقراء لا يتزوّجون بسهولةٍ يا عزيزتي..
ضحكت الشابة ضحكةً ماجنةً وطالت ضحكتها، فقال صابر: ما أجمل ضحكتك..
صمتت الشابة فجأة وبدا على وجنتها الخجل، فقال صابر: لا أُخفيك سراً، لقد سحرتني تلك الضحكة منذُ أن سمعتها منك عندما تناولت مني تلك الصينية الكبيرة..

فقالت الشابة وهي تنظر نحو الأرض: أشكرُ لك كلماتك الرقيقة..
فقال صابر: أتدرين يا عزيزتي.. إنها المرة الأولى في حياتي التي أشعُر فيها بذلك الشُعور..
تلعثم صابر واستكمل قائلاً: ألا تُلاحظين أن ظُروفنا تتشابه كثيراً؟
ابتسمت الشابة ابتسامةً خبيثةً، وكأنها تعيب عليه أنه غيَّر من الموضوع الذي كاد أن يتحدَّث فيه فجأةً، وقالت: أجل..
فقال صابر: هل لي أن أسألك سؤالاً خاصاً؟
أومأت الشابة برأسها مُعلنةً عن موافقتها، فقال صابر: هل تقدَّم إليك شخصٌ قبل ذلك طالباً أن يتزوَّجك؟
قالت الشابة وهي تبتسم ابتسامةً خفيفةً: لا..
فقال صابر: وماذا عن الحُبِّ؟ هل أحببتِ أحداً قبل ذلك؟

بدا الخجل بشدة على وجه الشابة، فقالت وهي تتلعثم: ما هذه الأسئلة الغريبة، لم يحدُث أن سألني أحدٌ تلك الأسئلة أبداً..
فقال صابر بصوتٍ هادئٍ وداقٍ للغاية: لكنني أحتاجُ إلى إجابتك بشدةٍ..
تفاجأت الشابة، فقالت بهدوءٍ مُماثل: ولِمَ تُريد أن تعرف ذلك؟
فقال صابر وهو ينظر في عينها: أجيبيني لو تكرَّمت.. أرجوكِ..
صمتت الشابة لبُرهةٍ ثُم قالت: لَمْ أُفكِّر في تلك الأُمور أبداً قبل ذلك..
ابتسم صابر مُعرباً عن فرحته، وقال وهو يتنهد بارتياحٍ: الحمدُ لله..

نظرت إليه الشابة مُستفهمةً، فاقترب منها وقال وهو يُخفض صوته: وأنا أيضاً لم أُفكِّر أبداً في تلك الأُمور قبل ذلك..

أرخت الشابة أهدابها في خجل، بينما شفتاها تبتسمان ابتسامةً خجولةً.
فقال صابر: ما رأيك إذاً أن نبدأ في التفكير في تلك الأُمور الآن.. أعتقد أن الوقت قد حان..
قالت الشابة بخجلٍ: أية أُمورٍ تلك التي تتحدَّث عنها؟
فقال صابر: أتتزوَّجينني؟

الفصل الثالث عشر

فيما يُشبه الحُلم، كانت تلك اللحظات من أروع الأوقات التي مرَّت على صابر في حياته على الإطلاق، ليس فقط بسبب أن قلبه قد بدأ أخيراً يخفق لإحداهنَّ للمرة الأُولى في حياته، بل لأنَّ الجو العام من حوله كان رومانسياً خالصاً، فقد خيَّم الصمتُ التام على جميع أرجاء المكان وخلد الجميعُ إلى النوم تقريباً، لم يعد يُسمع أية أصواتٍ ولا حتى همهماتٍ على الإطلاق، وهو ما جعل صابر وفتاته يتحدَّثان بصوتٍ هامسٍ لكي لا يسمعهما أحد، كان ينقصهما فقط أن تخفت الإضاءة قليلاً لكي يكون الجوُّ ساحراً أكثر من ذلك.

أخذ صابر يحكي ويحكي دون توقُّف، كانت تلك هي المرة الأُولى التي يفتح فيها قلبه بهذا الشكل، كان يُريد أن يقول لها كُلَّ شيءٍ عن نفسه، كان يتمنَّى ألا يُخفي عنها أية أسرار، وكانت هي تبتسم في دلالٍ وسعادةٍ طوال الوقت، وكانت تُعلِّق على ما يقوله حيناً، وتعترف إليه بأمرٍ ما عن نفسها حيناً آخر، كان صابر يعلم أنه في صراعٍ مع الزمن، فقد ينتهي إصلاح العُطل بالطائرة بين لحظةٍ وأُخرى، وحينها سيفترقان تماماً، فمقعده بالطائرة بعيدٌ عن

مقعدها، كما أنه سيكون من الصعب أن يلتقي بها عند الوصول إلى هُناك، فعملها كخادمةٍ منزليةٍ يجعل منها حبيسة منزل مخدومها طيلة الوقت بكُل أسف.

مرَّ وقتٌ طويلٌ وهُما على تلك الحال، كان صابر يحكي كثيراً بينما عيناه تنظُران إلي عينيها ولا تبرح مكانهما أبداً، أما هي فقد كانت تنظر هي الأُخرى داخل عينيه وتسمعه بأُذنيها، كانت تلك النظرات هي الطريق السحري الذي يصل بين قلبيهما، والرابط الخفي الذي يربط بينهما، فقد كان كُلٌ منهما في أمسِّ الحاجة لأن يرتاح قلبه لقلب الآخر، وأن يتأكَّد كُلٌ منهما من صدق النوايا وصفاء الروح.

توقَّف صابر فجأةً عن الكلام، ونظر في ساعة يده، جحظت عيناه قليلاً ثُم رفع رأسه نحوها مُتجاهلاً مسألة الوقت تلك، وقال لها: أعتذرُ لك بسبب ثرثرتي المُتواصلة، سامحيني.. إنني أتحدَّث باستمرارٍ ولم أدعْ لك فُرصةً للكلام..

ابتسمت الشابة بدلالٍ وقالت: تحدَّث كما يحلو لك.. فأنا أُريد أن أسمعك.. أنا سعيدةٌ هكذا..

فقال صابر وهو يهمس لها: ليس ذلك عدلاً.. فأنا أيضاً أُريد أن أعرف عنك كُلَّ شيءٍ..

فقالت له: ليس لديَّ الكثير من الأُمور التي أحكيها، فحياتي مُنغلقةٌ كما حكيتُ لك..

ربت صابر على يديها برفقٍ وقال: لكنني أُحب أن أراك وأنت تتكلمين.. تكونين ساحرةً هكذا..

سحبت الشابة يدها بسُرعةٍ بينما يملأ الخجل وجنتيها، وقالت: حسناً، فليكُن ذلك عندما نلتقي مرة أُخرى..
ابتسم صابر بسبب خجلها ذاك، وقال: لن أتحمَّل غيابك طويلاً.. ما زلت لا أُصدِّق أنني وجدتك..
ازداد خجل الشابة، فقالت وهي تُحاول أن تتهرَّب من خجلها ذاك بذكاء: كم مرَّ من الوقت حتى الآن؟

ابتسم صابر في خُبثٍ وقال وهو ينظر إلى ساعة يده مُجدَّداً: في هذه اللحظة بالتحديد.. مرت ستُّ ساعاتٍ كاملةٍ على موعد إقلاع الطائرة الأصلي.. لم تُظهر الشابة أنها قد انزعجت كثيراً، فقال صابر على الفور وكأنه يفهمها من نظرات عيونها: كنتُ أتضايق كثيراً كُلَّما تأخَّر موعد إقلاع الطائرة، أما الآن فأنا أتمنَّى أن يزداد ذلك التأخير، أتمنَّى أن أبقى معك وقتاً أطول.. ابتسمت الشابة في سعادةٍ لما قاله، وقالت: وأنا أيضاً سعيدةٌ جداً.. اتسعت ابتسامةُ صابر بسبب اعترافها هذا، وأخذ ينظر إلى عينيها بكُلِّ الحُبِّ. حاولت الشابة أن تنظر إليه طويلاً مثلما يفعل، لكنها أصابها الخجل مرة أُخرى، فأشاحت وجهها بعيداً وهي تضحك، فضحك صابر بسبب خجلها ذلك هو الآخر، كانت لحظةً مُمتعةً للغاية.

تنهَّد صابر في سعادةٍ ونظر إلى أعلى فلمح سماعة الإذاعة الداخلية، صدرت منه ضحكةٌ خفيفة، ثُم نظر إلى فتاته فوجد على وجهها علامات الدهشة وكأنها تسأله: ما الذي يُضحكك؟
فقال لها: هل ترين تلك السماعة المُعلَّقة بالسقف؟ إنها تخُصُّ الإذاعة الداخلية هُنا، كنتُ كُلما أنظرُ إليها منذُ ساعاتٍ، كانت تنطق بتعليمات

المُذيع الداخلي على الفور. كأنني أنا الذي أُعطيها إشارة التشغيل، لا أدري هل هذه هي السماعة الوحيدة هُنا في هذه الصالة أم لا..
ابتسمت الشابة ابتسامة مُجاملةٍ له، ثُم شبَّك صابر يديه ووضعهما خلف رأسه وتوجَّه ببصره إلى الأعلى حيثُ تقع تلك السماعة، ابتسم صابر ابتسامةً خفيفةً وفجأةً.. تردَّد من تلك السماعة صوتُ رنينٍ مُتقطع بصوتٍ عالٍ جداً مُعلناً أنه سيتم إلقاء تعليماتٍ جديدة.

جحظت عينا صابر من تلك المُفاجأة، ونظرت إليه فتاته بذهولٍ شديد، فقد صدر الصوتُ من السماعة بمُجرَّد أن نظر إليها صابر! يا له من سحر. تكرَّر الرنين من السماعة بشكلٍ أطول، وكأن المقصود من ذلك هو أن يستيقظ الرُكاب ويفيقوا من غفلتهم لينتبهوا لما سيتم الإعلان عنه، سرت همهماتٌ هُنا وهُناك وعمَّ الضجيج أركان الصالة فجأةً، فقد كان الجميع يوقظون بعضهم بعضا وينبّهون بعضهم، ويتلهَّفون لسماع أية أخبارٍ سارة.
كان يبدو على صوت المُذيع الداخلي ذلك الخليط العجيب بين النُعاس والسعادة، يبدو أنه كان يغُط في نومٍ عميقٍ عندما أيقظوه لكي يتلو هذا البيان، ولأن البيان يحمل أخباراً سارةً هذه المرة، فقد جاء صوته مُتفائلاً، على عكس المرات السابقة.
قال المُذيع إن إصلاح العُطل الذي أصاب الطائرة قد أوشك على الانتهاء، وأنهم يقومون بإعداد الطائرة لصُعود الرُكاب في خلال ساعةٍ واحدةٍ من الآن، مع تقديم خالص الاعتذار من شركة الطيران؛ بسبب هذا التأخير الطويل، والذي أكد أنه بسبب عُطلٍ مُفاجئٍ خارجٌ عن توقعات شركة الطيران تماماً.

سرت في الصالة حركةٌ في كُلِّ الاتجاهات، وازداد صوتُ الضجيج بشدة. فهُناك من قاموا ليذهبوا إلى دورات المياه، وآخرون أخذوا يتحدَّثون عبر الهاتف مع ذويهم بالخارج ليخطروهم بتلك التطوُّرات الجديدة. وبدأ الكثيرون ينادون صابر من هُنا وهُناك ليطلبوا منه في أدبٍ ورجاء أن يُحضر لهم بعض المشروبات الساخنة التي تُنبِّهم وتُساعدهم على الاستيقاظ. ابتسم صابر وهو في مُنتهى السعادة وهو يسمع الجميع ينادونه من كُل مكانٍ، فقد كان يحتاج إلى أن يبدو مُهماً جداً أمام فتاته تلك. كما أنها لَم تُخفِ سعادتها به هي الأُخرى.

استأذن منها صابر ليقوم بالخروج خارج الصالة ليجلب تلك المشروبات. فقد كانت تلك الجولة هي الأخيرة له في تلك الليلة. لكنها أكبر جولةٍ على الإطلاق. فالكمية المطلوبة من المشروبات في هذه المرة تفوق جميع المرات السابقة بعددٍ كبيرٍ جداً. يُخيَّل إليه أن الجميع قد طلبوا أن يشربوا شيئاً، جميعهم في وقتٍ واحدٍ.

أخذ صابر وقتاً طويلاً لكي يجلب تلك المشروبات ويوزِّعها على المُسافرين هُنا وهُناك. كان قد تملَّكه التعب في هذه المرة أكثر من كُلِّ المرَّات التي سبقتها، وبعد أن انتهى من مُهمته، قرر أن يجلس ويستريح. فقام صابر بالتوجُّه نحو تلك المنطقة المُفضَّلة لديه عند ذلك الرجُل العجوز وزوجته. اندهش صابر عندما وجد المقعد ما زال خالياً. لكنه تجاهله وتوجَّه نحو المنضدة المُجاورة لفتاته الخادمة. ابتسم لها وهو يجلس وقال: الآن يُمكنني أن أستريح قليلاً.. ابتسمت الشابة إليه في حنانٍ. فقال: لقد بدأ الضجيج يخفُت قليلاً، أتدرين يا عزيزتي، هُناك أمرٌ غريب..

نظرت إليه الشابة في فضولٍ، فقال صابر: كنتُ أظُنُّ أنني سأجدُ الفرحة على وجوه الجميع بسبب اقتراب موعد الإقلاع أخيراً، لكنني شعرتُ بما هو عكس ذلك..

فقالت الشابة: وما الذي شعرت به؟

فقال صابر: لقد كان أغلب المُسافرين ساخطين، حاولت كثيراً أن أتبادل بعض الكلمات المرحة مع الناس لكن ردود أفعالهم أدهشتني، فقد كانوا جميعاً ينظرون إليَّ بسخفٍ واستنكار..

فقالت الشابة: إنها فقط الحالة المزاجية السيئة، لا تنسَ أن الجميع قد باتوا ليلةً صعبةً للغاية، فهُم يفتقدون إلى الراحة والنوم، لذلك فمن المؤكد أن الأعصاب مشدودة للغاية..

فقال صابر: رُبما، ولكن أُنظري إلينا أنا وأنت، إننا لسنا مثلهم على الإطلاق، أنا الآن في حالة سعادةٍ فائقة..

ابتسمت الشابة، فقال لها صابر: يا لها من ابتسامةٍ بديعةٍ، الآن أدركتُ السبب الذي يجعلني في تلك الحالة المزاجية الجميلة، إنك أنت السبب في ذلك..

ابتسمت الشابة بخجلٍ وقالت: يا له من كلامٍ جميلٍ.. أشكرك..

سرت فترةٌ من الصمت بينما صوت الضجيج في الصالة أصبح مقبولاً بعض الشيء، أخذ صابر يتأمَّل في وجوه الناس من حوله، شعر صابر بأنه يرى العالم بعيونٍ جديدةٍ هذه المرة، أخذ يتذكَّر حكايا كُلِّ من حوله من الناس، لقد كانت حكاياتهم تُصيبه بالإحباط؛ لأنه يشعُر بأن مشاكلهم جميعاً أبسط وأسهل كثيراً من مشاكله هو، وكان يشعُر بحقارته عندما يُقارن نفسه بهم، أما الآن فهو يشعُر بالسعادة والرضا أكثر منهم، يا الله، من كان يتخيَّل أنه

سيجد فتاة أحلامه التي تُناسب وضعه وظروفه في هذا اليوم، يا لها من صُدفةٍ جميلة، فقد ابتسم له الحظ أخيراً بعد طول غياب.
وفجأة سمع صابر صوت ارتطامٍ من خلفه، التفت صابر على الفور فوجد رجُلاً قد وقع على الأرض مغشياً عليه، التفَّ الناس حوله وهرع صابر مثلهم نحوه، جلس صابر على الأرض ورفع رأس ذلك الرجُل من على الأرض وأخذ يُحاول إفاقته، أخذ يصبُّ بعض الماء فوق رأس الرجُل، وبعد عدة مُحاولات بدأ الرجُل يتنفَّس بشكلٍ طبيعي، فتح الرجُل عينيه ببُطءٍ فابتسم صابر، وبدأ الجميع يُردد من حوله: الحمد لله.. الحمد لله..

نظر الرجُل حوله وهو يتصفَّح وجوه الناس المجتمعين من حوله بدهشةٍ، ثُم قال: ماذا حدث؟
كان صابر ما زال جالساً بجواره على الأرض ويُمسك بظهر الرجُل ليسند ظهره على يديه، فقال صابر: أنت الذي يجب عليه أن يقول ماذا حدث؟ لقد سقطت مغشياً عليك فجأةً يا عزيزي..
قام الرجُل العجوز وناول صابر زُجاجةً تحتوي على عصيرٍ طبيعي وقال: أعطه هذه ليشربها الآن يا بُني، لا بُدَّ وأنه قد أصابه الهُبوط بسبب نقص السُكر أو السوائل..
هزَّ صابر رأسه موافقاً وأخذ الزُجاجة من الرجُل العجوز، ثُم ناولها للرجُل الجالس على الأرض، فقال الرجُل مُوجِّهاً كلامه نحو الرجُل العجوز: أشكرك يا عزيزي..

فقال الرجُل العجوز: لا عليك.. حمداً لله على سلامتك..
اعتدل الرجُل في جلسته على الأرض وقام بتناول العصير دفعةً واحدةً، ثُم قال: هل اقترب موعد إقلاع الطائرة؟

فقال صابر: لقد مرَّ نصف ساعةٍ تقريباً منذُ أن أذاعوا إعلانهم الأخير..
نظر الرجُل في عيون كُلِّ الواقفين من حوله وقال وهو يبدو عليه الاستياء الشديد: لا أُريد أن أُسافر.. لا أُريد.. لقد كنتُ أتمنَّى أن يتمَّ إلغاء تلك الرحلة..
نظر الجميع إلى بعضهم بعضاً وهُم يشعرون بدهشةٍ كبيرةٍ، ثُم نظروا نحو الرجُل من جديد كأنهم يُريدون منه أن يوضح ما قاله، فتجرَّأ صابر وسأله: ما الأمر يا عزيزي؟ لماذا لا تُريد أن تُسافر؟

قال الرجُل بصوتٍ مُتحشرجٍ بسبب الدموع التي يُغالبها: لقد سئمتُ حياتي بهذا الشكل، إلى متى سأبقى هكذا أدور في تلك الحلقة المُفرغة؟ لقد شارف عُمري على الخامسة والأربعين بينما أنا أعيشُ وحيداً هُناك بالخارج، تتشابه الأيام والسنين ولا أتمتَّع بأي شيءٍ، حتى أولادي هُنا في الوطن صاروا كالغُرباء عني، إنني لا أراهم إلا شهراً واحداً في كُل عامٍ، وفي كُل مرة أكتشفُ أنني لا أعرفهم وأنهم لا يعرفونني أنا الآخر، فأنا بالنسبة لهم مُجرد ذلك المصرف المالي الذي يجلب لهم النقود التي يحتاجونها لا أكثر، إنهم يحبون فيَّ المال ولستُ أنا الهدف من حُبهم لي، إلى متى سأبقى على تلك الحال؟ إلى متى؟

نظر الجميع إلى بعضهم ولُم يجرؤ أحد على التفوُّه بكلمةٍ واحدةٍ، وحينها صاح الرجُل: إن الدُنيا لا تساوي أن نلهث وراءها هكذا يا حضرات، صدِّقوني، إنني أعملُ موظَّفاً في مكتب شحن البضائع بالمطار هُناك، وكانت كثيراً ما تقع عيناي على أشياءٍ ثمينةٍ أقوم بشحنها لكنني لم أكُن أحلُم أبداً باقتنائها، كنتُ أتمنى لو أن لدي تلك الأموال الطائلة التي تمكِّنني من شراء مثل تلك الأشياء، ولكن مثلما كانت ظُروف عملي تجعلُني أُشاهد أشياءً

ثمينةً، كنتُ أُشاهدُ أيضاً العديد من النُعوش والتوابيت لأُناسٍ قد ماتوا هُناك في الغُربة.
بدا الوجوم على وجوه الجميع، فاستكمل حديثه وقد بدأ في البُكاء وقال: كنتُ أُشاهد تلك التوابيت مرة واحدة على الأقل كُل أسبوع، وكنتُ أسأل نفسي: هل سأكون أنا أيضاً حبيساً لأحد تلك التوابيت ذات يومٍ؟ هل ستنتهي حياتي مثلهم وأنا في أرض الغُربة؟ وماذا عمَّن بالتابوت الآن؟ هل يحمل التابوت جُثةً لأحد الأشخاص الذي يعتبره أولاده مصرفاً مالياً مثلي؟ هل قام أحد أصحاب تلك التوابيت بشحن أحد تلك الأشياء الثمينة التي مرَّت عليَّ قبل ذلك؟

بدا الأسى على وجوه الجميع، فأخذ صابر يربت على كتف وظهر الرجُل مُحاولاً أن يُهدئ من روعه، حاول الرجُل أن ينهض من مكانه، فقام صابر معه ليُساعده على الوقوف، شكر الرجُل صابر على مُساعدته وقال: شكراً لك.. سأتوجَّه إلى مقعدي بمُفردي.. شكراً لك..
نظر صابر إلى الرجُل وتابعه بعينيه حتى اطمأنَّ إلى أنه قد جلس بسلامٍ، وفي نفس الوقت انفضَّ كُل هؤلاء الذين تجمهروا حول ذلك الرجُل وعاد كُلٌّ منهم إلى مكانه، وكذلك فعل صابر.

سادت فترةٌ من الصمت والحُزن بين الجميع، حتى صابر، لم يستغلَّ الوقت المُتبقى ليتحدَّث فيه مع فتاته، وأخذ ينظر في وجوه الآخرين بينما هو واجمٌ مثل الآخرين.
نهض الشاب الذي يجلس على يمين الرجُل العجوز من مكانه، ثُم توجَّه نحو رجُل الأعمال الكهل، وقال له دون أي مُقدماتٍ: وأنا أيضاً لا أُريد أن أُسافر.. أُريد أن أفتتح مشروعي الخاص على أرض الوطن..

التفت الكهل نحو الشاب وهو يبتسم ابتسامةً كبيرةً وقال: هل أخافك ما قاله موظف الشحن هذا؟

فقال الشاب بملامح جادةٍ وثابتةٍ: كُل الحكايات من حولي تؤكد صحَّة وجهة نظري، حتى حكايتك أنت يا سيدي..

انطفأ وجه الكهل فجأةً، ثُم قال: أنا؟ لكن ظُروفي أنا مُختلفة..

فقال الشاب مُقاطعاً: كلا، كان من المُمكن أن تقوم بإنشاء شركتك الخاصة على أرض الوطن، ربُما يستغرق ذلك وقتاً أطول، رُبما يحتاج ذلك مجهوداً أكبر، إنها أمورٌ مُتوقَّعةٌ لتُعوِّض الفارق بين علاقاتك وخبراتك بين هُنا وهُناك..

صمت الكهل قليلاً، فاستأنف الشاب حديثه قائلاً: ألم تُفكر يا سيدي في ذلك عندما قُمت بإنشاء شركتك الثانية بعد أن ضاعت منك الشركة الأولى؟ ألم تُفكر في مصير تلك الشركة الجديدة إذا حدث لك مكروه لا قدر الله؟

فقال الكهل: في الحقيقة، إنني أُفكر في هذا الأمر طيلة الوقت، وأحاول دائماً أن أُطلع زوجتي وأولادي على كل ممتلكاتي هُناك..

فقال الشاب: ولِمَ كُل هذا القلق؟ إن الأُمور ستكون أكثر سهولةً ووضوحاً لو أن تلك المُمتلكات كانت على أرض الوطن، كما أن كُل ما تبنيه هُناك هو في النهاية إضافةٌ للبلد المضيف وليس لوطننا، أنا أُريدُ أن أُفيد بلادي أنا بمجهوداتي واستثماراتي..

فقال الكهل وهو يبتسم: هذا تفكيرٌ رائع.. يا ليت كُل الشباب بنفس الحماسة مثلك هكذا..

فقال الشاب: هل تُشاركني الرأي إذاً يا سيدي؟

فقال الكهل: لقد صادفتُ العديد من الشباب في مثل عُمرك وخبرتك، ورأيتهم جميعاً يُفكرون في اتجاهين فقط لمسار حياتهم، بينما أنت الوحيد الذي صادفته وهو يُفكر في أربعة مساراتٍ..
فقال الشاب مُستفهماً: مسارين وأربعة مسارات! ما معنى ذلك؟

ابتسم الكهل وقال: الغالبية يُفكِّرون في مسارين تقليديين فقط وهما البحث عن وظيفةٍ في الخارج أو البحث عن وظيفةٍ داخل الوطن، ودائماً ما تكون المُقارنة والمُفاضلة بينهما، أما أنت فقد أضفت إلى ذلك أمرين آخرين: لأنك تُفكر في المُقارنة بين أن تفتتح مشروعك الخاص بالخارج أم بداخل الوطن..
ابتسم الشاب وقال: أشكر لك إطراءك يا سيدي، لكنني في الحقيقة لستُ كذلك، فأنا أُقارن فقط بين الاستمرار في العمل كموظفٍ في الخارج، وبين أن أفتتح مشروعاً خاصاً على أرض الوطن، لم أُفكِّر أبداً في أن أُنشئ مشروعي الخاص بالخارج، كما أنني صرتُ أمقُتُ الوظيفة كمبدأ عام، لذلك لم يعُد خيار التوظيف على أرض الوطن مطروحاً بالنسبة لي..

ربت الكهل على كتف الشاب مُشجعاً إياه وقال: فلتعمل ما تُحبُّه وما تقتنع به، وأتمنى لك التوفيق..
فقال الشاب وهو يبتسم وعيناه كُلها ثبات: لقد اتخذتُ قراري الآن، سأتقدَّم باستقالتي فور وصولي إلى هُناك، وسأعود إلى وطني في خلال شهرٍ أو شهرين بإذن الله، حينها سأُحقق حُلمي وأفتتح مشروعي الخاص، وسأبحث عن فتاة أحلامي..
ابتسم الكهل ابتسامةً واسعةً للغاية وقال: ما أجمل حماس الشباب..
فقال الشاب: لكنك ما زلت شاباً أنت أيضاً يا سيدي..

فابتسم الكهل شاكراً على تلك المُجاملة وقال: كلا لم أعُد شاباً، فالعُمر يجري والأولاد يكبرون يوماً بعد يومٍ..
صمت الكهل للحظاتٍ ثُم قال: إنني في حالة سعيٍ دائمٍ وراء مشروعاتي وأعمالي، ولا يتبقى لأولادي أي وقتٍ يُمكنني أن أقضيه معهم، إنني لا أجد حتى لنفسي أنا وقتاً لأهتم بصحتي أو أُموري الخاصة..

هزَّ الشاب رأسه مُتفهماً، فاستكمل الكهل قائلاً: كثيراً ما سألتني زوجتي.. إلى متى ستظل تلهثُ هكذا؟ إلى متى ستبقى بعيداً عنا؟ أعلم أنك تُغدقُ علينا بالأموال والسفريات والحياة الرغدة، لكن كُل ذلك ليس له طعمٌ من دونك، كما أنك لا تستمتع بكُل ذلك مثلنا على الإطلاق..
فقال الشاب: يا له من سؤال مهمٍ.. إلى متى ستبقى على هذه الحال! وبماذا أجبتها يا سيدي؟
ابتسم الكهل وقال: إنها تسألني ذلك السؤال في كُلِّ عامٍ، وأنا أجيبها نفس الإجابة كُلَّ عام..

ضحك الكهل واستكمل قائلاً: أقول لها إنني سأعودُ إليهم نهائياً عندما أنتهي من تسليم المشروع الذي تقوم شركتي بعمله هُناك، لكنني في كُل مرة لا أوفي بوعودي لها أبداً، فقبل أن أقوم بتسليم المشروع أجِدُني أتعاقدُ على عمل مشروعٍ آخر يبدأ بعده، والمشروع يليه المشروع، والسنة تليها السنة، ولا أجدُ أنني قادرٌ على التوقُّف أبداً..
فقال الشاب: وإلى متي ستظل على تلك الحال يا سيدي؟
انطفأ وجه الكهل وقال: يبدو أنني سأبقى هكذا إلى أن أعود مشحوناً في أحد التوابيت التي تحدَّث عنها ذلك الرجُل..
فقال الشاب: حفظك الله من كُل شَرٍّ يا سيدي.. لا تقُل ذلك..

فقال الكهل: يبدو أن ذلك هو ما سيحدُث لي لو استمر الحال على ما هو عليه، يا لها من نهايةٍ مُحزنةٍ..
فقال الشاب: ولماذا تستسلم لتلك الحال؟ هل أنت بحاجةٍ إلى ذلك؟
فقال الكهل: في الحقيقة لا، أنا بالفعل لا أحتاجُ إلى أن أعيش مُغيباً هكذا، لا يوجد مُبرر لذلك الطمع، أنا في الأساس لستُ طماعاً أو مُحباً لجمع الأموال، لكنني فقط كُلما قاربتُ من الانتهاء من تنفيذ أحد المشروعات، تأتيني فُرصةٌ جديدةٌ للحصول على مشروعٍ آخر، فأجدُني أميلُ إلى قبول المشروع أكثر من الرفض..

أطلق الكهل تنهيدة طويلةً ثُم قال: إنها دائرةٌ مُفرغةٌ سأظل أدور فيها ولن تنتهي أبداً، ولا بُدَّ أن أُوقفها أنا بيدي، لا يوجد حلٌّ آخر، عليَّ أن أختار بين أُوقف نزيف العُمر.. وبين أن أنتظر يوماً أكون فيه مشحوناً في أحد تلك التوابيت التي يحملها ذلك الرجُل..
ابتسم الشاب وقال بخُبثٍ: يبدو أنك قد قررت شيئاً يا سيدي..

بادله الكهل الابتسام وقال: أجل، يبدو أنه اليوم العالمي للعودة إلى الوطن، فليكُن المشروع الحالي هو الأخير بالفعل، إنه سينتهي في غضون شهرين على الأكثر، وسأتوقّف بعدها عن الدُخول في مشروعاتٍ جديدةٍ، وحينها سأتمكّن من العودة إلى الوطن للاستمتاع بالحياة مع زوجتي وأولادي..
بدت السعادة على وجه الشاب وقال: يا له من قرارٍ جريءٍ يا سيدي، أُحييك على ذلك، إنه قرارٌ صائبٌ للغاية..
فقال الكهل: لقد عملتُ كثيراً ولم أستمتع بحياتي أبداً، وأنا أُريد أن أستمتع بما تبقى لي من العُمر، لذلك فإن عليَّ أن أُوقف تلك العجلة التي تدور بي فلا أشعُر بالزمن بسببها.

بدت السعادة الغامرة على وجه الشاب والكهل معاً، لاحظ صابر ذلك في عينيهما بوضوحٍ، فقال لنفسه: ما أجمل أن يتوقفُ الإنسان ليلتقط الأنفاس وليقوم بتقييم حياته، وليس ذلك فحسب، بل الأجملُ أيضاً هو أن يُصحِّح الإنسان من مسار حياته لكي يصل في النهاية إلى غايةٍ أفضل، وإلا فإنه سيظل هائماً على وجهه معصوب العينين فلا يكتشف أنه قد أخطأ المسار إلا عندما يقترب قطار حياته من الوصول إلى محطاته النهائية، فيجدها غير مُرضيةٍ على الإطلاق.

تحرَّك صابر ببصره نحو اليمين قليلاً فوجد تلك الزوجة الشابة تربتُ بيدها على كتف زوجها الشاب وتقول: للمرة الثانية أسألك، ما الذي أحزنك فجأةً هكذا؟ لماذا لا تردُّ عليَّ؟

تنهَّد الزوج الشاب بعُمقٍ وقال: ألم تسمعي ما قاله ذلك الرجُل الذي سقط مغشياً عليه منذُ قليل؟

بدت الدهشة على وجه الزوجة الشابة وقالت: لقد سمعته بالتأكيد، ولكن ما علاقة ذلك بك؟

قال الزوج: لقد أفزعتني فكرةُ الموت بالخارج..

قطبت الزوجة الشابة حاجبيها وقالت: ما هذا الهراء الذي تقوله؟ ما الفرق بين الموت هُنا أو الموت هُناك؟ الموتُ هو الموت، لا يهمُّ مكانه أو زمانه أو حتى طريقته، تتعدد الأسباب والموتُ واحدٌ..

فقال الزوج: كلا يا حبيبتي، هُناك فرقٌ رهيبٌ بين الموت هُنا والموت هُناك، أنا لا أعني كيف تكون طريقة الموت، لكنني أعني الحياة التي تسبق ذلك الموت..

قالت الزوجة الشابة: ما هذه الألغاز؟ ماذا أصابك يا حبيبي؟

ربت الزوج على يد زوجته وقال: سأشرح لك، أنا لا أخشى الموت هُناك بالخارج، فالأعمار بيد الله عز وجل، ولا تدري نفسٌ بأيِ أرضٍ تموت، أما الذي أخشاه فهو أن تطول غيبتي بالخارج، ويطول البعاد بيني وبين إبني وأمي، ثُم بعد ذلك إذا حدث لي مكروه فسأكون قد مت دون أن أراهما..
بدا الانزعاج على وجه الزوجة الشابة، فاستكمل زوجها شرحه قائلاً: أما لو كنتُ مُقيماً على أرض الوطن، فمن المؤكد أنني سأراهما بطريقةٍ ما بين الحين والآخر، وحينها لن يكون رحيلي عن الحياة مصحوباً بآلام البعاد أيضاً..

بدا الحُزن الشديد على وجه الزوجة الشابة فقالت: ما هذا التفكير السوداوي؟ كيف أتتك هذه الأفكار السيئة؟
ابتسم الزوج وقال: لا تُسيئي فهمي يا حبيبتي، لا أعني بذلك أنني قد صرتُ مُتشائماً، أنا فقط أُفكر في طول البعاد بيني وبين أُمي وابني، ونفس الموضوع ينطبق عليك أنت أيضاً إذا فكَّرت في أُمك وابنتك..
انطفأ وجه الزوجة الشابة، فقال زوجها: أعلم أننا على خلافٍ حادٍ مع أُمي وأُمك، وأعلم أن طليقتي وطليقك لن يدعانا نرى أولادنا بسهولةٍ، لكن بُعدنا عنهم سيزيد من تلك الجفوة أكثر وأكثر، ورحيلنا إلى الخارج سيجعلنا نكون في دائرة النسيان بالنسبة لهُم، وقد ينسى الأولاد أشكال وجهينا فلا يعرفاننا إذا عُدنا إليهم بعد سنواتٍ..

فقالت الزوجة الشابة: سيتمزّق قلبي لو أن الأولاد أنكرونا..
فقال زوجها: هذا ما سيحدُث بالفعل، فذاكرةُ الأولاد في مثل هذا العُمر المُبكِّر تكون ضعيفةً للغاية، ويا ليت الأمر يقتصر على نسيانهم لأشكال

وجهينا فقط، بل ستنعدم الألفة أيضاً بيننا وبينهم، فلن يشعروا بأحاسيس الأبوة والأمومة نحونا..
فقالت الزوجة الشابة: يا الله، لن يتحمَّل قلبي ذلك.. لا أُريد أن يحدُث ذلك أبداً..

فقال زوجها: لن نتجنَّب ذلك إلا إذا كُنا قريبين منهم باستمرار..
فقالت الزوجة: وكيف يتحقَّق ذلك؟
فقال زوجها: بأن نبقى هُنا ولا نُسافر، فلنتحمَّل بعض الضغوط والمواقف الهجومية في سبيل أن نبقى على مقربةٍ من الأهل والأولاد، صدِّقيني سيكون ذلك أفضل كثيراً من أن نرحل، فرحيلنا سوف يلغي وجودنا من ذاكرتهم..
صمتت الزوجة الشابة قليلاً ثُم قالت: لم أُفكِّر في ذلك الأمر أبداً قبل ذلك..
فقال زوجها: وأنا أيضاً لَم أفكر في ذلك، لكن بُكاء موظف الشحن ذاك حرَّك بداخلي تلك الأفكار، لقد أخذتُ أُراجع نفسي وأقول.. لماذا سنبتعد؟ لماذا نهرب؟ هل ستكون المكاسب أكثر من الخسائر؟ بالطبع لا، فخسارتنا على المدى الطويل قد تكونُ أكبر..
هزَّت الزوجة الشابة رأسها ببُطءٍ مُعربةً عن تأييدها لذلك المنطق، فسألها: لقد فكرتُ في أن نعود إلى الوطن، هل توافقينني في ذلك يا حبيبتي؟ ما رأيك لو قُمنا بتصفية حياتنا هُناك فور وصولنا؟ لقد انتابني الحماس تجاه تلك الفكرة الآن..

فاقتربت الزوجة الشابة من زوجها وقالت: لا فرق بيننا يا حبيبي، سأكون معك في أي مكانٍ وعلى أي حالٍ، فلتفعل ما تشاءُ وسأواجه الدُنيا كلها معك..

ضمَّ الزوج الشاب زوجته إلى صدره مُعرباً عن امتنانه لها. ابتسم صابر عندما رأى ذلك المشهد الجميل ونظر إلى يمينه حيثُ تجلس فتاته، فوجدها تنظر إليه في نفس الوقت وتعلو وجهها ابتسامةٌ مُماثلة. ضحك صابر بسبب تلك الصُدفة، فضحكت هي الأخرى، ثُم أشاحا وجهيهما مُجدداً نحو الزوج الشاب وزوجته، فوجدا أنهما قد نهضا من مكانهما، وسارا سوياً مُتوجّهين نحو دورة المياه.

لمح صابر الرجُل العجوز وهو يُتابع الزوج الشاب وزوجته وهما يسيران في طريقهما، وفجأة ضربته زوجته العجوز بيدها وقالت: لماذا تنظر إليهما هكذا؟

التفت الرجُل العجوز إليها فجأةً وقال: ماذا بك؟

فقالت زوجته: لا يليق أن تُتابع الناس ببصرك هكذا، أم إنك تنظر إلى تلك المرأة الشابة؟

فقال الرجُل العجوز: ولماذا أنظر إليها؟ دعك من هذا الشكِّ السخيف..

فقالت زوجته: ولماذا تنظر إليهما إذاً؟

فأجاب الرجُل العجوز: لا أُخفي أنني مُعجبٌ جداً بحكايتهما، يا لهما من مُثابرين..

فقالت زوجته: ولم ذلك الإعجاب؟ إن أمرك لغريبٌ حقاً! إن حياة هؤلاء الزوجين مليئةٌ بالمشاكل والمصائب، ولا أظنُّ أن حياتهما ستسير بهدوءٍ أبداً، فقد تسبَّبا لنفسهما في خلق عداواتٍ لن يسلما منها أبداً..

بدا الاندهاش على وجه الرجُل العجوز وقال: هل هذا هو رأيك فيهما؟ إنك لغريبة الأطوار! ألم تلحظي ذلك الحُبَّ الجارف الذي يجمع بين قلبيهما؟ ألم

تلحظي أن ذلك الحُبَّ هو الذي يمنحهما القوة والشجاعة لمواجهة تلك المشاكل والعداوات التي تتحدَّثين عنها؟

فقالت زوجته: أعرف أنهما يعشقان بعضهما بعضاً، لكن ذلك الحُب لن يصمُد طويلاً في مواجهة الحروب التي تنتظرهما..

فقال الرجُل العجوز: ذلك لأنك لا تعرفين ما هو الحُبُّ..

بدا الغضب على وجه زوجته، وصمتت قليلاً ثُم قالت: الآن فهمت، لقد تسبَّب هذان الزوجان في أن يجعلوك تتذكَّر نزوتك القديمة، لا بُدَّ وأن تلك الزوجة الشابة قد جعلتك تستحضر صورة حبيبتك السابقة.. يا للرومانسية..

قطب الرجُل العجوز جبهته في غضبٍ وقال: ما هذا الهراء الذي تقولينه؟

فقالت زوجته: ليس هراءً على الإطلاق، فأنا أفهمك جيداً، إنك تدَّعي أنك مُعجبٌ بهما لأنك تعرف ما هو الحُب، وأنت تعتقد أنني امرأةٌ قاسية القلب ولا أعرف عن الحُب شيئاً..

فقال لها: لم أقصد ذلك..

فقالت في حدةٍ: بل تقصد ذلك بالتأكيد، أتدري ما هو الفرق بيني وبينك؟ الفرق بيننا هو الخيانة..

بدا الغضب على وجه الرجُل العجوز وقال: أية خيانة؟

فقالت زوجته: لقد خُنتني بمجرد أن داعب الحُب قلبك ذات يومٍ وهرولت نحو امرأةٍ أُخرى، أما أنا فقد كنتُ دائماً أكتمُ مشاعري؛ لأنني لستُ خائنةً ولن أكون خائنة أبداً..

فاحتدَّ الرجُل العجوز وقال: لَمْ أكُن لأفعل شيئاً حراماً، فقد كنتُ سأتزوَّجها في الحلال..

فقالت زوجته: الخيانة لا تعني بالحلال والحرام، الخيانة لا تُفرّق بين الزواج والزنا، الخيانة هي الخيانة..

فقال الرجُل العجوز: لا تنسَيْ أنني الرجُل، وقد شرع لي الله أن أتزوّج عدة زوجاتٍ، أما أنت فلا..

فقالت باستياء واضحٍ: لا أمل في نقاشٍ عادلٍ معك، إنك ترى الدُنيا من منظورك الشخصي فقط، إنك أناني..

فقال الرجُل العجوز: لقد كبرت وخرفت..

فقالت زوجته: بل أنت الذي لم تتغيَّر فيك أنانيتك تلك، لقد عشتُ عُمري كُله أحافظ على مشاعرك، بينما أنت لم تُحافظ على مشاعري أبداً..

فقال الرجُل العجوز: أعلم أنك كُنت تحبين ابن خالتك.. هذا ما ترمين إليه في خُبثٍ..

فقالت زوجته في تحدٍّ: أجل، لقد كنتُ أُحبه..

فقال الرجُل العجوز: ولماذا لَمْ تتزوَّجيه إذاً؟ سأُجيبك أنا نيابةً عنك.. لقد كُنت تُفضِلّين المُستوى المادي العالي الذي أُوفِّره لك، لقد فضَّلتِ المال عن الحُب، لا تدَّعي النقاء والنُبل يا عزيزتي..

فقالت زوجته: لا أُنكر أن أهلي قد أقنعوني بأن أترك حُبي من أجل المال، كان ذلك عندما كنتُ صغيرةً، لكنني أتحدَّث الآن عن نزوتك الحقيرة، لقد كان بإمكاني حينها أن أتركك وأعود إلى حُبي..

فقال الرجُل العجوز: حقاً؟ ولماذا لَمْ تتركيني حينها إذاً؟

فقالت زوجته: وهل كُنت ترضى أن أتركك لأتزوج بغيرك؟

فقال الرجُل العجوز: أجل، لقد كان ذلك أفضل لكلينا..

فقالت زوجته: يا لك من زوجٍ لا تعرف الغيرة قلبه..

ابتسم الرجُل العجوز وقال: لقد كانت الغيرة من نصيبك أنت ولستُ أنا، لقد تركت حُبك للمرة الثانية في حياتك لكي تحفظي ماء وجهك أمام الناس، يا لك من امرأةٍ عجيبة تبيع حُبها مرتين، الأولى من أجل المال.. والثانية من أجل المظاهر، لقد قُلتُ لك يا عزيزتي.. إنك لا تعرفين ما هو الحُبُّ..
فقالت زوجته: لقد كان خطئي أنني لم أتمسَّك بأنانيتي مثلك، لقد كنتُ أحافظ على مظهر أولادي وعلى صورتك أمام الناس وليست صورتي أنا فقط، لقد آثرتُ أن أحافظ لأسرتنا على شكلها المُتماسك في وجوه الأقارب والأصهار، لكن يبدو أن تلك التضحية لم تكُن تعني لك شيئاً، يا للخسارة..
فقال الرجُل العجوز: عن أية خسارةٍ تتحدَّثين؟

فقالت زوجته: لقد خسرتُ عُمري معك دون جدوى..
فقال الرجُل العجوز: أبعد كُل ما قدَّمته إليك تقولين ذلك؟ يا لخسارة عُمري أنا..
فقالت زوجته: لو كنتُ أعلمُ أن ذلك هو شُعورك تجاهي، لكنتُ طلبتُ الطلاق حينها..
فقال الرجُل العجوز: يا ليتكِ فعلتِ ذلك..
فقالت زوجته: عموماً ما زال هُناك مُتَّسعٌ من الوقت لكي نفعل ذلك..
فقال الرجُل العجوز: حسناً، لنناقش تفاصيل ذلك الانفصال حينما نصل إلى هُناك..

هزَّت المرأة العجوز رأسها بالموافقة، وأشاحت برأسها بعيداً عن زوجها وهي تُطلق زفرةً تدلُّ على شدة الضيق، بينما استدار الرجُل العجوز ليُعطيها ظهره، أخذ صابر يجول ببصره بينهما وهو لا يُصدِّق ما سمعه، لقد كان حواراً نارياً وهجومياً للغاية، وأسوأ ما فيه هو أن كلهما كان يختزن بداخله

عداءً خافياً لا ينقصه سوى شرارة صغيرة لكي ينفجر. وهذا ما حدث.
حينها تحدَّثت العروس وهي تنظر نحو السيدة النحيفة وقالت: يا لها من علاماتٍ وإشاراتٍ..
فسألتها السيدة النحيفة: إشاراتٌ تدلُ على ماذا؟
فقالت العروس: كُلُّ ما يحدُث اليوم يدعو إلى التشاؤم، لا يوجد أي شيءٍ يبعثُ على التفاؤل..

فقالت السيدة النحيفة وهي تُحاول أن تبُثَّ بعض الاطمئنان: كلا يا عزيزتي، لا تنظُري إلى الأُمور التي تحدُث اليوم على أنها نذيرُ سوء، أعلمُ أن اليوم كان لا بُدَّ وأن يكون يوماً مُميزاً وخُصوصاً أنه يوم زفافك. وأعلم أنك قد أصابك التوجُّس والضيق منذُ أن سمعت بتأخير موعد إقلاع الطائرة وما تلاه من أحداثٍ، لكن صدِّقيني ليس ذلك دليلاً على شيء.. صدِّقيني.. حاولت العروس أن تبتسم ابتسامة مُجاملةٍ تشكُرُ بها السيدة النحيفة، وبدا أنها لا تستطيع التحدُّث، وأنها لا تُريد أن تُجادل في الأمر. فاستكملت السيدة النحيفة تبريرها قائلةً: انظري إلى يوم زفافي أنا على سبيل المثال، لقد كان يوماً ساحراً منذُ أن استيقظتُ من نومي في الصباح، فقد تفاجأتُ بالعديد من الصديقات من حولي على الفراش، تناولنا طعام الإفطار سوياً، وضحكنا كثيراً واستمعنا إلى العديد من الأغاني، كما أننا قُمنا بالرقص كثيراً أيضاً، ذهبنا بعدها إلى صالون التجميل في موعدنا، وأنهينا كُلَّ شيءٍ في الموعد المُحدد الذي اتفقنا عليه مع المدعوين، لم يتأخَّر زوجي أو المدعوون، ولم يحدُث أي شيءٍ يُعكِّرُ من صفو ذلك اليوم، وهو ما جعلني أشعرُ بالتفاؤل الشديد..

تنهّدت السيدة النحيفة قليلاً وقالت: لقد قُلتُ لنفسي حينها إن كُل ذلك دليلٌ على أنني سأهنأ بزواجٍ سعيد وهادئ، وهو ما لم يحدُث على الإطلاق بكُل أسف، بل كان زواجي سيئاً في كُل تفاصيله منذُ الأسبوع الأول، وما زال يسوء أكثر وأكثر حتى يومنا هذا..

هزّت العروس رأسها بهدوء، ثُم قالت بصوتٍ مُتحشرجٍ: إنني خائفة.. أشعُر الآن بأنني أُلقي بنفسي في الجحيم، إن صدري يضيقُ للغاية كُلما تذكرتُ أن هُناك رجلاً غريباً سيختلي بي بعد ساعاتٍ، بينما أنا أراه لأول مرةٍ في حياتي..
بدا الاستياء على وجه السيدة النحيفة، فقامت بضمِ العروس إليها وقالت: لا تُفكري بتلك الطريقة يا عزيزتي، رُبما أعصابك مشدودةٌ الآن بسبب عدم النوم وقلة الراحة، أو رُبما أصابك بعضُ التوتر مما سمعتِه ممن حولنا من الناس، تفاءلي بالخير يا عزيزتي، فرُبما وجدت زوجك إنساناً رائعاً على عكس كُلّ تلك المخاوف التي تُحيطُ بك الآن..
فقالت العروس: لقد كنتُ مُضطرّةً أن أُقبل التفريط في حقي في الحصُول على مُهلةٍ كافيةٍ للتعرف على زوجي، وها أنا قد أصبحتُ زوجته بالفعل، لكنه زواجٌ وفق الأوراق الرسمية فقط، سأُحاول أن أحصل على حقي ذلك الآن قبل أن يتحوّل زواج الأوراق إلي زواجٍ فعلي..
فقالت السيدة النحيفة: وماذا يعني ذلك؟

فقالت العروس: أعلم أن ما أقوله قد يكون عيباً أو حراماً، لكنني في النهاية لستُ جماداً أو حيواناً، من حقي أن أطمئنَّ إلى زوجي قبل أن ينالني أو يلمسني، من حقي ألا أُسلِّم جسدي إلى رَجُلٍ يظن أنه يمتلكني بسبب أن هُناك بعض الأوراق التي تقول إنني زوجته، لن أدعه يمس جسدي قبل أن

تطمئنَّ إليه روحي، هذا شرطي عليه الآن، إما أن يكون جديراً بأن أعطيه روحي وجسدي معاً، وإما فلن أعطيه أي شيء..
اتَّسعت حدقتا السيدة النحيفة من شدة الانبهار، وظلَّت عيناها مفتوحتين على اتساعهما للحظاتٍ طويلةٍ، ثُم قالت: لقد أفقدتِني النُطق يا عزيزتي، يا لشجاعتك وقوة منطقك، أستفعلين ذلك حقاً؟

فقالت العروس وكُلها تصميمٌ: هذا قراري الأخير، إلى متى سأبقى فتاةً تابعةً أخشى المواجهات؟ وإلى متى سأظلُّ أخشى كلام الناس ونظراتهم؟ أتدرين ما الذي سيحدُث لو سارت الأُمور لا قدَّر الله إلى الأسوأ؟ حينها سألوم نفسي فقط على أنني قد تجنَّبتُ المواجهات ولن ينفعني اللوم حينها..
صمتت السيدة النحيفة قليلاً ثُم قالت: معك حق، إن كُل ما تقولينه صحيحٌ تماماً، إن كُلَّ ما نحن فيه من مشاكل حياتيةٍ سببها هو تلك الطريقة الرمادية التي ننتهجها، نعيش في منطقةٍ ما بين الصواب والخطأ، فلا نجني على أنفسنا سوى حياة مُرهقة للغاية..
هزَّت العروس رأسها بالموافقة، فاستدركت السيدة النحيفة قائلةً: لا أذكر كم عدد المرات التي خانني فيها زوجي وغضبتُ منه ورحلتُ بعيداً عنه، ثُم عُدتُ إليه بعدها لأستأنف حياتي معه، لماذا كنتُ دائماً أفعل ذلك؟ لماذا كنتُ دائماً أُصدِّقه أو أخدعُ نفسي بأنني أُصدِّقه؟ كنتُ أعلم في كُل مرة أنه قد يعود لخيانتي مُجدداً، لكنني كنتُ أُمنِّي نفسي بأنه قد تنصلح حاله، تلك الأُمنية الكاذبة التي لم تتحقَّق أبداً ولن تتحقَّق..

صمتت السيدة النحيفة قليلاً ثُم قالت: أُسافرُ الآن وأنا أُدرك تمام الادراك أنني سأُسافر وسأعود إلى هُنا مُجدداً بعد شهورٍ قليلةٍ لنفس السبب، سيخونني مرةً أُخرى وسأغضب وأرحل من جديد، ثُم سيبكي ويعتذر ويُقسم

إنه لن يعود إلى فعلته تلك مُجدداً، سيبكي أولادي ويستعطفونني لكي أعود، لن تكون المرة الأخيرة..

تنهّدت السيدة النحيفة وقالت: لا بُدَّ أن يكون هُناك وقفةٌ لكُل ذلك العبث، إنني أحتقرُ نفسي الآن عندما أعترفُ لنفسي بأن تلك الخيانة سوف تتكرَّر، وأنني سوف أتجاوزها وأعود إليه، أين كرامتي في كُل ذلك؟ لا بُدَّ أن زوجي يعرف عني ذلك وهو ما يُشجّعه لتكرار تلك اللعبة السخيفة، إنه أنا من يُعطيه الفُرصة ويُسهّل عليه أمر خيانتي..

قالت العروس بحذر: هوّني عليك يا عزيزتي..

فقالت السيدة النحيفة وهي تنظر نظرةً كُلها تحدٍّ: لن أدعه يخدعني من جديد، لن أترك له الفُرصة لكي يستغلَّ سذاجتي وتفريطي، سأطلب منه الطلاق عندما أصل إلى هُناك، لا كرامة في حياةٍ تملؤها خيانةٌ لن تنتهي..

جحظت عينا العروس وقالت: وماذا عن أولادك يا عزيزتي؟

فقالت السيدة النحيفة وهي تبتسم: سأحصل عليهم عاجلاً أم آجلاً، لن يستطيع زوجي أن يقوم على رعايتهم أبداً، لا يُمكن أن يتقبّل أن يُقيِّد من حركته أحدٌ حتى لو كانوا أولاده، رُبما سيُحاول في بادئ الأمر أن يحرمني منهم كوسيلةٍ للضغط عليَّ؛ وذلك لكي أعود له، لكنه سيستسلم سريعاً جداً وسيعودون إليَّ من جديد، وستعود قبلهم كرامتي إلي..

ضمَّت العروس السيدة النحيفة إليها بشدةٍ ثُم ابتعدا وكلاهما تبتسم ابتسامةً تُشجع بها الأُخرى، وفي نفس الوقت أفلتت دمعةٌ من عين كُلٍّ منهما، رفعت كُلٌّ منهما يدها لتمسح تلك الدمعة، فضحكتا سويا ضحكةً جميلةً بسبب تلك المُصادفة.

نظر صابر إلى فتاته وهو يبتسم بسبب ذلك المشهد. فوجدها هي الأُخرى تنظر إليه في نفس اللحظة تبتسم هي الأُخرى، فضحكا سوياً ضحكةً مُماثلةً لضحكة السيدتين، ربت بيده على يدها فسحبت يدها في خجلٍ بسُرعةٍ. وهي تُحرك عينها حولها خوفاً من أن يراهما أحد. ابتسم صابر ابتسامةً واسعةً بسبب خجلها، ثُم نظر إلى الأمام فلمح ذلك الفتى يميل على أُخته التي تبدو كتوأمه وهو يقول لها: أتدرين؟ لقد أخطأنا كثيراً عندما استسلمنا لمخاوف أُمنا ووافقنا على السفر، لقد أعدتُ التفكير الآن، ووجدت أن سبب سفرنا الآن مُحرجٌ للغاية، إنه من المُشين أن نُسافر في مُهمةٍ مُلخَّصها أن نُراقب أبانا، وأن نمنعه من الزواج بأُخرى..

فقالت أُخته: لكن أبانا لم يعترض على ذلك..
فقال الفتى: كان لا بُدَّ له أن يوافق على ذلك؛ لكي يُبدي حُسن نواياه تجاه أمي، أتفهَّم موقف أبي تماماً، لقد كان مضطراً إلى ذلك، أما نحنُ فقد كان لزاماً علينا أن نُقنع أمنا بألا تُسيء الظن بأبي، وخصوصاً بعد أن وافقها على ما تريده، كان من الواجب علينا ألا نستسلم لها من أجل هذا الأمر الساذج..
فقالت أُخته وهي تهزُّ رأسها بالمُوافقة على كلامه: إن كلامك موزونٌ ومنطقيٌ تماماً..
فقال الفتي: ما رأيك أن نوقف هذا الهراء؟ لنتحدَّث مُجدداً مع أُمنا ونقنعها بوجة نظري تلك، لقد سئمتُ الحياة بالخارج وأُريدُ أن أعود إلى الوطن..
فقالت أُخته: وأنا أيضاً مثلك، لقد أصابني نفس السأم، إذاً لنُحاول مرةً أُخرى بقوةٍ وضراوةٍ هذه المرة، وستكون لنا الغلبة بإذن الله..

ابتسم الفتي وقال: لكن علينا أيضاً أن نتأكَّد من أن أبانا لن يتزوَّج بأُخرى في غيابنا؛ لأنه لو حدث ذلك بعد أن نرحل من هناك فإن أُمنا ستُقدم على قتلنا جميعاً باستخدام القُنبلة النووية!

ضحكت الفتاةُ وضحك أخوها معها، وضربا كفوفهما الأربعة بعضها ببعض، وفي نفس اللحظة صدر من سماعة الإذاعة الداخلية صوتُ رنينٍ مُتقطع، ليُعلن بعدها المُذيع الداخلي أخيراً عن دعوة الرُكاب للتوجُّه نحو باب المُغادرة استعداداً لركوب الطائرة.

الفصل الرابع عشر

اصطفَّ الرُكاب في صفوفٍ مُنتظمة؛ وذلك للخروج من صالة السفر إلى الحافلات التي ستُقلهم إلى حيث تربضُ الطائرة، كان صابر يقفُ بين أعضاء نفس المجموعة التي كانت تجلسُ حول مكان الرجُل العجوز وزوجته، ولا عجب في ذلك، فقد نهضوا جميعاً في وقتٍ واحدٍ واصطفُّوا سوياً أمام البوابة في نفس الموضع من الطابور.

صعد الجميع إلى الحافلة في صمتٍ واضحٍ، كان الوجوم يُخيّم على أوجه الجميع، وكانوا مُكتئبين للغاية، حاول صابر أن يكسر حاجز الصمت فقال: أتدرون يا أعزائي، إن الفرق بين موعد الإقلاع الذي كان مُخططاً مُسبقاً وبين موعد الإقلاع الحقيقي الآن هو سبع ساعاتٍ كاملةٍ، إنه رقمٌ تاريخي لا بُدَّ وأن نحصُل به على جائزةٍ خاصة لتحقيق الأرقام القياسية..

لم يلقَ تعليق صابر أيَّ تشجيعٍ ممن حوله على عكس ما كان يعتقد، فقد كان يقصد أن يُهوِّن من أمر تلك الحالة الجافة على الجميع بأن يقول شيئاً طريفاً، لكنه أدرك الآن أن الهمَّ الداخلي أكبر بكثيرٍ من أن يضحك أحد، وأعمق بكثيرٍ من أن يستجيب إلى طُرفته أحد، كان صابر كمن يُحاول أن يكسر الحديد الصلب بواسطة قطرةٍ من الماء.

كان الجميع يهتزُّ بسبب حركة الحافلة السريعة، وكانوا يحاولون أن يُحافظوا على توازنهم وهُم في شُرودٍ تام، شعر رجُل الأعمال الكهل بالإحراج الذي أصاب صابر بسبب تجاهُل الجميع له، فتطوَّع ليُجيب عليه قائلاً: لقد سافرتُ كثيراً في حياتي وصادفتُ العديد من حالات تغيير مواعيد رحلات الطيران، لكنها المرة الأُولى في عُمري التي تتأخر فيها رحلة طيران لأكثر من سبع ساعاتٍ كاملةٍ، لقد تم اقتطاع ذلك الوقت من ساعات نومنا، وهو ما سيؤثر على ساعتنا البيولوجية، ومن الأفضل الآن أن نخلُد إلى النوم بعد أن نصعد إلى الطائرة..

فقال صابر وهو سعيدٌ بسبب أن الكهل قد أنقذ ماء وجهه: ومن منا لن ينام الآن؟ لقد تملَّك التعب والإجهاد من الجميع، وبالتأكيد سنتساقطُ جميعاً الآن وسننام، إن الأمر سيكون أقرب للغيبوبة منه إلى النوم.. ابتسم الكهل ابتسامةً خفيفةً ثُم ساد الصمتُ جنبات الحافلة من جديد إلى أن وصلت إلى مكان الطائرة، هبط الجميع من الحافلة وبدأوا في الصعود إلى الطائرة في تباطؤٍ واضحٍ من شدة الإرهاق، ثُم ارتمى كُل راكبٍ على مقعده المُخصَّص له، لتبدأ بعدها العُروض التي يُقدِّمها طاقم الضيافة بالطائرة عن إجراءات السلامة وتعليمات السفر.

أغمض الجميع عينيه في دلالةٍ على أن هُناك حالةً جماعيةً من النوم سوف تُخيمُ على الجميع، وبعدها تحرّكت الطائرة ثُم تسارعت حركتها تدريجياً إلى أن ارتفعت عن الأرض وبدأت في التحليق عبر السماء.

كان ذهن صابر مشغولاً وتتراقص الأفكار في رأسه بسُرعة كبيرة، وهو ما لم يُساعده على النوم، حاول أن يطرد كل الأفكار من رأسه ليُبقي فكرةً واحدةً وهي عن تلك الفتاة التي تعمل خادمةً هُناك، والتي طلب منها أن يتزوَّجها. كيف سيكون الأمر عندما يصل إلى هُناك يا تُرى؟ كيف سيراها بانتظامٍ بعد ذلك؟ هل لا بُدَّ أن يتحدَّث مع مخدوميها في أمر زواجه منها؟ أم إن الأمر لا يعنيهم وعليه أن يُخاطب أهلها في أرض الوطن؟ أم الاثنان معاً؟ فكَّر قليلاً وقال في نفسه: إن مخدوميها هُم الأكثر تأثراً بتلك الزيجة؛ وذلك لأنه سيحتاج إلى أن تتركهم فتاته لتبيت معه، وسيحتاج أحياناً إلى أن يخرُج معها للتنزه أو التسوُّق، فكيف لها أن تتركهم وتخرُج؟ رُبما سيرفضون كُلَّ ذلك من البداية، ورُبما طردوها من عملها، هل يُمكن أن يتحمَّل تكاليف المعيشة مُنفرداً في هذه الحالة؟ يا له من أمرٍ مُحير.

أدرك صابر أن مُحاولاته لينام قد باءت بالفشل، ففتح عينيه ونهض من مكانه ليذهب إلى دورة المياه، وعندما وصل إلى مكانها وجدها مشغولة، فقرَّر أن ينتظر من بداخلها حتى يخرُج منها، أدار ظهره لباب دورة المياه ونظر نحو مقاعد الرُكاب بفضوله المُعتاد وأخذ يتصفح في وجوه الجالسين أمامه، لمح على أقصى اليمين ذلك الرجُل العجوز وزوجته، كانت الزوجة تنظرُ عبر النافذة رغم أن الدُنيا مُظلمةٌ خارج الطائرة، وهو ما يعني أنها لا تُريد أن تتوجَّه ببصرها نحو زوجها الجالس بجوارها، كما أنه كان يوجِّه

بصره بعيداً عنها وكأنه لا يعرفها، كان كلاهُما ما زال مُستيقظاً على عكس ما كان يتوقعُ صابر.
وبعيداً عن الرجُل العجوز وزوجته في أقصى اليسار وفي صفٍ مُتأخرٍ عنهما، كان يجلس الزوج الشاب وزوجته التي هي طليقة أخيه، كانا أيضاً على حالةٍ مُماثلةٍ من الاستيقاظ هُما أيضاً، وليس ذلك فحسب، بل كانا أيضاً يتناقشان بجديةٍ تامةٍ في أمرٍ ما، تمنَّى صابر لو أنه كان على مقرُبةٍ منهما الآن ليسمع نقاشهما، يبدو من ملامح وجهيهما أن هُناك أمراً مهماً يتباحثان بشأنه.

حاول صابر أن يبحث في وجوه بقية المُسافرين عن أُناسٍ قد يعرفهم أو كان قد تحدث معهم قبل إقلاع الطائرة، لكن ذاكرته لم تُسعفه بتذكر أي منهم، وفي نفس اللحظة سمع من يقول له من خلفه: إذا سمحت.. أُريد المُرور يا عزيزي..
كان ذلك هو الشخص الذي يشغل دورة المياه قبل توجُّه صابر إليها، فأفسح له صابر الطريق ثُم دلف إلى دورة المياه، وخرج منها مُتوجِّهاً إلى مقعده، وكان في طريق عودته تلك ما زال يتصفَّح في وجوه المُسافرين لعله يجد أحداً يُمكنه أن يقف بجواره ليتحدَّث معه قليلاً، لكنه لم يجد، وعاد إلى مقعده.

بدأ طاقم المُضيفين في توزيع وجبات طعام العشاء على الرُكاب، وبرغم أن الجميع كانوا بحاجةٍ إلى تناول الطعام، إلا أن العديد من المُسافرين رفضوا أن يتناولوا شيئاً، وكُلما زاد عدد المُمتنعين عن الطعام، كُلما زادت دهشة المُضيفين، عرف صابر ذلك عندما وصلت المُضيفة إلى مكانه وسألته: هل ستتناول شيئاً يا سيدي؟

هزَّ صابر رأسه بالموافقة، فقالت المُضيفة بينما يبدو على وجهها السعادة: هذا رائع، إذاً فأنت لست واحداً من هؤلاء المُضربين عن الطعام، إن أكثر من نصف عدد الركاب رفضوا أن يتناولوا شيئاً..

فقال صابر: أعتقد أن الإرهاق قد حلَّ على الجميع، ففضَّلوا النوم على الطعام..

حاول صابر أن يتناول طعامه فوجد أنه هو الآخر يفتقدُ إلى شهيته المعهودة أمام الطعام، إذاً فالأمر لا علاقة له بالإرهاق، إنه التفكير الذي يُحير الإنسان ويُفقده شهيته وإقباله على الحياة. تناول صابر الشيء القليل من الطعام ثُم ضغط زر استدعاء المُضيفة لتستعيد صينية الطعام. مرَّت ساعةٌ ونصف الساعة إلى أن بدأ نور الفجر يتسرَّب إلى داخل الطائرة عبر نوافذها الصغيرة على استحياءٍ، ثُم أخذ ذلك الضوء يزداد تدريجياً شيئاً فشيئاً، أخذ صابر يتأمل أشكال السحاب في ضوء النهار بينما تبدو على وجهه ملامح الدهشة، لقد كانت الليلة التي قضاها بالمطار طويلةً جداً ومُظلمةً للغاية، كان كمن اعتادت عيناه الظلام وحياة الليل لدرجة أنه نسي كيف يكون ضوء النهار، وها هو يراهُ أخيراً وكأنه يراه لأول مرةٍ، لقد أدرك صابر أن ظلام الليل يدعو إلى الكآبة، بينما يُعطي ضوء النهار بعض الأمل، هكذا شعر صابر، ورُبما كان ذلك الشعور شعوراً خاصاً به وحده، هكذا حدَّث نفسه.

بدأت الطائرة في الهُبوط التدريجي، وبدأت تدب في جنبات الطائرة بعض الهمهمات بين هُنا وهُناك، كان ذلك دلالةً على أن الجميع قد بدأوا في الاستيقاظ، وأن هُناك حالةٌ من التحفز والاستعداد لنشاطٍ جديدٍ بعد ساعاتٍ طويلةٍ من الخُمول الإجباري الذي فرضه ذلك الانتظار، والذي كانوا جميعاً مُرغمين عليه.

هبطت الطائرة أخيراً، وبدأ الرُكاب في مُغادرتها ليستقلُّوا الحافلات التي ستُقلُّهم إلى صالة الوصول، نظر صابر في وجوه من معه بالحافلة فلم يتعرَّف على أحد، وكان الجميع يتجاهلون معرفتهم به، برغم أنه كان أكثر الرُكاب شُهرةً على الإطلاق حينما كانوا يتهافتون عليه ليجلب لهم المشروبات، وهو ما أصاب صابر بالإحباط، يا له من نُكرانٍ للجميل، فقد كانوا جميعاً يطلبونه؛ لأنهم يحتاجونه، أما الآن فهم يتجاهلونه؛ لأنهم لا حاجة لهم لديه.

أنهى صابر إجراءات المُرور عبر منفذ جوازات السفر ثُم توجَّه إلى منطقة استلام الحقائب، كان جميع الرُكاب يأتون الواحد تلو الآخر ويتجمَّعون في نفس المكان في انتظار وصول الحقائب، لكن الحقائب لم تبدأ في الوصول بعد، وبدأ المكان يكتظ بالرُكاب، كان الوقت مُبكراً للغاية وكان من الواضح أن عدد العُمال والموظفين في المطار هو عددٌ قليلٌ للغاية، رُبما كان ذلك هو السبب في تأخُّر وصول الحقائب، وهو ما جعل الرُكاب يتذمَّرون ويشعرون بالضيق الشديد، فالجميع في حالة إرهاقٍ شديدةٍ لا تسمح لهم بالانتظار لفترةٍ طويلةٍ من جديد، يكفيهم ما حدث لهم في صالة السفر قبل صعود الطائرة.

أخذ صابر يتأمَّلُ في وجوه المُسافرين وكأنه يُحاول تسلية نفسه، لمح من بعيدٍ ذلك الرجُل العجوز وزوجته، ابتسم صابر ووجد نفسه يتوجَّه نحوهما بتلقائيةٍ شديدةٍ، وعندما وصل عندهما كانت المرأة العجوز مُتكئةً على ذراع زوجها وقد مالت رأسها نحو كتفه، لم يشعُر الرجُل العجوز وزوجته بوجود صابر، كان الرجُل يقول لها بدفءٍ شديدٍ: أتتركيني وحدي بعد كُلِّ هذا العُمر؟ كيف لي أن أعيش من دونك بعد أن كُنت مُلاصقةً لي خلال عُمري كُله؟

فتضحك زوجته العجوز بدلالٍ وتقول: لا أستطيع أن أتركك بالطبع، فقد أصبحت جُزءاً لا يتجزأ من نسيج رُوحي وحياتي بفعل العشرة الطويلة فيما بيننا، اعتدتُ كُلّ طباعك وعاداتك، حتى ما يُضايقني منها..

فقال الرجُل العجوز: أكُنت ستتركينني لتتزوجي بآخرٍ؟

فتضحك زوجته وتقول: هذا الآخر لا أعرف عنه شيئاً، كيف لي أن أترك من اعتادت عيوني كُل تفاصيله طوال عُمري من أجل لحظة غضب؟

فقال الرجُل العجوز: سامحيني إن كنتُ قد أغضبتك..

فقالت له: وأنت أيضاً سامحني على استفزازي لك..

ضمّ الرجُل العجوز زوجته إلى صدره بقوةٍ، وأغمضت هي عينيها وتنفّست بعمقٍ، شعر صابر بالحرج وخشي أن يلحظ أحدٌ أنه يُتابع حديثهما، فآثر أن يبتعد عنهما قليلاً بينما هو في غاية الدهشة من ذلك التحوُّل المُفاجئ. تحرّك صابر قليلاً فوجد ذلك الشاب الذي سئم سنوات الغُربة الخمس، كان يتحدَّث عبر هاتفه المحمول بكُل حماسٍ ويبدو أن من يُحادثه هو أحد زُملائه في العمل، فقد كان الشاب يسأل العديد من الأسئلة الفنِّية بشغفٍ شديدٍ، وكُلما حصل على إجابةٍ سأل سؤالاً آخر، كان يبدو أن هُناك حدثاً جديداً أو تقدماً مهماً قد حدث في مكان عمل الشاب، وهو ما جعل الشاب يختم حديثه عبر الهاتف قائلاً: لقد أصبحتُ مُشتاقاً جداً الآن إلى العودة إلى موقع العمل، أتمنى لو يُمكنني الطيران لأكون معكم الآن، فأنا أعشق هذا التحدّي وبإذن الله سنُنهي تلك الأعمال قبل مُضي العامين الممنوحين لنا، سأبذُل قُصارى جُهدي لأختصر في الجدول الزمني للمشروع، وسترى يا عزيزي أن ذلك سيجعلهم يمنحوننا مشروع المرحلة الثانية بعده، تذكُر كلامي هذا منذ الآن وسترى..

اندهش صابر للغاية، إن الشاب يذكُر كلمة عامين! عن أي عامين يتحدَّث؟ لقد كان يشكو قبل السفر من أنه قد ملَّ الغُربة وسنواتها الخمس، أنسي كُل ذلك الآن بل ويتحدَّث عن عامين إضافيين؟ يا للعجب! ابتعد صابر عن مكان الشاب وقال لنفسه: من الأفضل لي أن أبحث عن فتاتي، لا بُدَّ وأن جميع الرُكاب قد عبروا منفذ جوازات السفر الآن.

كانت الحقائب لا تزال مُتأخرةً في وصولها، وبينما كان صابر يتجوَّل بين الرُكاب مُتصفِحاً وجوههم، لمح رجُل الأعمال الكهل أمامه فجأةً، تبادلا الابتسام سريعاً ثُم بادره الكهل بالسؤال قائلاً: لماذا تأخَّر وصول الحقائب يا عزيزي؟ ألا تُوجد معلومةٌ لديك؟ ألست على علاقةٍ بموظفي الطيران هُنا مثلما كُنت هُناك؟

ابتسم صابر وقال: أما زلت تتذكَّر ذلك يا سيدي؟ لقد كان ذلك هُناك، وكان ذلك في الماضي، أما هُنا فالأمر مُختلفٌ..

ابتسم الكهل وقال: لقد كان ذلك منذُ ساعاتٍ قليلةٍ..

فقال صابر: وها قد تغيَّر كُل شيءٍ.. إنها سُنَّة الحيـاة..

هزَّ الكهل رأسه وكأنه يقول له إنك على حقٍ يا عزيزي، وفجأةً أتاهُ اتصالٌ على هاتفه المحمول، أشار الكهل بيده لصابر يستأذنه في قطع حوارهما للرد على الهاتف، هزَّ صابر رأسه بالموافقة وهو مُندهشٌ من ذلك الأدب الجمِ الذي يتميَّز به ذلك الكهل، بدأ الكهل حديثه عبر الهاتف بينما وقف صابر مُنتظراً إياه حتى يُنهي مُكالمته، ولم يشأ أن ينصرف احتراماً لدماثة خُلُق ذلك الكهل، كان يبدو أن المُتحدِّث هو أحد العُملاء أو ما شابه ذلك، استنتج صابر ذلك عندما قال الكهل لمُحدثه وهو يصرخ من الفرحة: لا أُصدِّق ما تقوله لي يا سيدي، إن ما تُخبرني به الآن هو حُلمٌ أبعدُ من الخيال، بل هو الخيال ذاته، لم أحلُم خلال عُمري كُله بأن أفوز بمثل تلك

المُناقصة الكبيرة، لقد تقدَّمتُ إليها بينما كانت أقصى طموحاتي هي أن تُسندوا إلى شركتي رُبع حجم المشروع على أقصى تقدير، كنتُ أعتقد أنكم ستستبعدون شركتي تماماً من المُنافسة على تلك المُناقصة.. صمت الكهل قليلاً وهو يستمع إلى مُحدثه بينما هو يتحرّك يميناً ويساراً من شدة فرحته وقال: لقد أسديت إليَّ يا سيدي معروفاً لن أنساه لك طوال العُمر، وثق تماماً بأنني سأبذُل قُصارى جُهدي لكي أُثبت لكُم بأن ثقتكُم كانت في محلِّها..
استدار الكهل في مكانه وأعطى ظهره لصابر دون أن يشعُر، واستمر في شُكره لمُحدثه، ثُم أنهى مُكالمته وقام بعدها على الفور بالاتصال بشخصٍ آخر يبدو أنه أحد مُعاونيه في شركته الخاصة، وبدأ في إبلاغه بذلك الخبر السعيد وهو يكاد يرقُص فرحاً، وذكر في وسط حديثه أن ذلك المشروع الجديد سيمتدُّ إلى أربع سنواتٍ قادمة!

ابتسم صابر مما يسمعه، وأخذ ينظُر إلى الكهل الذي نسيه تماماً وكان يُعطيه ظهره، ونظر بعيداً نحو ذلك الشاب الذي كان قد سئم الغُربة وما فيها، فرآه يتحدَّث عبر هاتفه المحمول هو الآخر بحماسٍ مُماثل لحماس ذلك الكهل، ضحك صابر ضحكةً خفيفةً وهزَّ رأسه يميناً ويساراً وهو يقول: سُبحان الله.. سُبحان مُغيِّر الأحوال..
قرَّر صابر أن يترك الكهل ويبحث عن فتاته بين الواقفين لانتظار الحقائب، فقد نسي الكهل كُلَّ شيءٍ بمُجرد سماعه ذلك الخبر الذي أسعده، سار صابر قليلاً بين الناس فوجد الزوجة الشابة وزوجها الذي تزوَّج مُطلقة أخيه، وقف صابر لتحيتهما قائلاً: حمداً لله على سلامتكما..
فقال الزوج الشاب: سلَّمك الله.. حمداً لله على سلامتك أنت أيضاً..
فقال صابر: لقد لمحتكما بالصُدفة بينما كُنا بالطائرة نُحلِّق فوق السحاب، ولاحظتُ أنكما لم تناما..

نظر الزوج الشاب إلى زوجته فابتسما إلى بعضهما، ثُم قال الزوج: أجل، لم يتسرَّب النوم إلى جفوننا، فقد سرقنا الوقت بينما كُنا نتحدَّث..
ابتسم صابر لكليهما وقال وهو يتصنَّع الذكاء: أظنُّ أنك قد أخبرتنا قبل صُعودنا إلى الطائرة أنك ستعود قريباً إلى أرض الوطن.. أليس كذلك يا سيدي؟

نظر الزوج الشاب إلى صابر باندهاش وقال: من قال ذلك؟ إنني وزوجتي ما زلنا في أول يومٍ في شهر العسل، ونُريد أن يمتدَّ ذلك الشهر لفترةٍ طويلةٍ..
ضحك الزوج الشاب ضحكةً خفيفةً وهو ينظرُ إلى زوجته التي ظهر على وجنتيها الخجل، فقال صابر وهو يُشاغبهما: وكيف يُمكن للشهر الواحد أن يمتد؟ ألا يحتوي الشهر على ثلاثين يوماً لا غير؟
فأمسك الزوج الشاب بيد زوجته وقال: كلا، إن الشهر لدينا يختلفُ تماماً عن شهور بقية الناس، ولقد قررنا أن يكون شهر العسل هذا هو عاماً كاملاً على الأقل، ورُبما يمتد لعامين أيضاً، وبعدها سوف نُفكِّر في مسألة العودة إلى الوطن في زيارةٍ قصيرةٍ، أو أن يمتد شهر العسل لفترةٍ أطول..

ابتسم صابر وهو ينظرُ إليهما بخُبثٍ وقال: إذاً فذلك هو الموضوع المهم الذي منعكما من النوم أثناء تحليق الطائرة..
بدا الخجل على وجه الزوج الشاب وزوجته، فضحكا سوياً وشاركهما صابر الضحك، ثُم حيَّاهُما واستكمل البحث عن فتاته، فوجدها واقفةً في أول مكان تخرُج منه الحقائب، ابتسم صابر لأنه وجدها أخيراً ثُم توجَّه إليها، وبينما كان يقترب منها بدأ وصول الحقائب فجأةً، وبدأ الضجيج يعلو بين الركاب بسبب تدافعهم لبحثهم عن حقائبهم، وبدا الانشغال على وجه الفتاة

لمُراقبة الحقائب التي تتوالى في الوصول أملاً في أن تلمح حقائبها فتنتزعها من بين الحقائب الكثيرة التي تتابع في الوصول.
اقترب منها صابر وقال لها: أين كُنت كُلَّ ذلك الوقت؟ لقد كنتُ أبحثُ عنك في كُلِّ مكان..

التفتت الفتاة إليه فجأة وكأنها تفاجأت به وقالت بينما تزوغ عيناها بين الحقائب المُتتابعة: أتقصدني أنا؟ لقد كنتُ أقفُ هُنا منذُ أن عبرتُ منفذ جوازات السفر..
فقال لها: لم نتفق على الكيفية التي ستكون عليها لقاءاتنا التالية.. أين ومتى سوف أتمكَّنُ من رؤيتك؟
قالت الفتاة وهي يبدو عليها أن نظراتها مُشتتةٌ بين صابر وبين الحقائب المُتتابعة: ولماذا تُريد أن تراني؟
فقطَّب صابر عن حاجبيه وقال: هل تمزحين أم ماذا؟ أنسيت ما اتفقنا عليه؟ أنسيت حياتنا المُشتركة التي تحدَّثنا عنها؟
فقالت الفتاة: آه.. أذكُر ذلك.. أذكُر ذلك.. إن الأمر يحتاجُ منا إلى نقاشٍ طويلٍ لنقوم بترتيب العديد من التفاصيل يا عزيزي..

تنفَّس صابر بعُمقٍ وقال: حسناً.. ومتى سنتقابل لنُناقش تلك التفاصيل؟ كيف سأحصُل عليك؟ كيف يُمكنُني الاتصالُ بك؟
قالت الفتاة: لا أعلم كيف يكونُ ذلك، لا يُمكنُني أن أُعطيك رقم هاتف المنزل الذي أعمل به، لأنني لن أتمكَّن من الرد على اتصالك وأنا هُناك، سيُسبِّب ذلك الأمر ضرراً كبيراً لي..
فقال صابر بينما يبدو العبوس على وجهه: وكيف سيُمكنُني أن أتحصَّل عليك إذاً؟

صمتت الفتاةُ قليلاً وكأنها تُفكر ثُم قالت: أعطني أنت رقم هاتفك، وسأقوم أنا بالاتصال بك حينما تسنحُ لي الظُروف..
نظر صابر في عينيها ثُم قال وهو يبدو عليه عدم الحماس: حسناً..

بحث صابر في جيوبه وأخرج ورقةً صغيرةً وقلماً، ثُم قام بكتابة رقم هاتفه، وقال: هذا هو رقم الهاتف الخاص بالعمل، وهذا الرقم الثاني هو رقم الهاتف الذي بالمنزل، إنني أُغادر المنزل في السابعة صباحاً وأعودُ إليه في السابعة مساءً..
كانت الفتاة تلتقط حقيبتها، وقالت: أخيراً وصلت حقيبتي.. يا له من يومٍ طويلٍ جداً..
ناولها صابر الورقة التي كتب فيها أرقام الهواتف، وقال وهو يُشير إلى الحقيبة: هل أُساعدك في حملها حتى الخارج؟
تناولت الفتاة الورقة دون اكتراثٍ وقالت: كلا لا تُرهق نفسك، فسيدي الذي أعمل لديه ينتظُرني بنفسه هو وسائقه الخاص خارج صالة الوصول، ولا أُريد لأحدهما أن يراك معي..

حيَّاها صابر فهزَّت رأسها وهرولت إلى الخارج مُسرعةً، سار خلفها صابر بسُرعةٍ هو الآخر لكي يظلَّ مُحافظاً على ملامحها حتى آخر لحظةٍ، وما أن اقتربت من الباب، أبطأ صابر خطواته قليلاً، فوجدها تُلوح بيدها لرجُلٍ عجوزٍ يرتدي الزي الوطني الخليجي، ويقف بجواره رجُلٌ آخر ضئيل الجسم آسيوي الملامح يبدو أنه السائق التي تحدثت عنه، وما أن اقتربت منهما إذا بورقةٍ ما تسقطُ من يد الفتاة، انخلع قلبُ صابر من مكانه وقام بالعدو ليلتقط تلك الورقة، فقد ظنَّ أن الورقة التي تحتوي على أرقام هواتفه قد سقطت من يد الفتاة أو أنها رمتها على الأرض عمداً، أخذ صابر الورقة ونظر

فيها فوجد أنها تذكرةُ الصعود إلى الطائرة، فرفع رأسه وهو ينظرُ نحو فتاته التي تبتعدُ شيئاً فشيئاً وهو يقول في نفسه: أحقاً ستقومين بالاتصال بي؟ أم إنك تغيَّرت أنت الأُخرى مثل الآخرين؟

التفت صابر إلى الخلف ليعود من جديدٍ ليبحث عن حقيبته، فسمع صوتاً عالياً من الزغاريد وأغاني الأعراس المُفرحة، التفت إلى يمينه نحو ذلك الصوت فتفاجأ بأن العروس قد خرجت من صالة الوصول لتجد زوجها ينتظرها ومعه العديد من الأصدقاء وزوجاتهم، كانوا يقومون بزفافهم بالغناء والتصفيق والزغاريد، لقد كانت مُفاجأةً سارةً جداً لتلك العروس، التفَّ حولها صديقاتُ زوجها وأمطرنها بالأحضان والقُبلات وأوصلنها إلى زوجها الذي احتضنها أمام الجميع وسط التصفيق الحاد والتهاني الحارة، وبرغم خجلها الواضح إلا أنها سعدت جداً بتلك المُفاجأة وبدا على وجهها الارتياح، وخرجت وهي تتأبَّط ذراع زوجها وهي تنظرُ في عينيه بحُبٍ وشغفٍ شديدين، يبدو أن زوجها قد أعجبها بشدةٍ، كما بدا في عينيها ذلك الاشتياق إلى قضاء ليلةٍ ساحرةٍ..

ابتسم صابر من ذلك المشهد الجميل وتابع العروس وزوجها حتى خرجا من صالة الوصول، ثُم التفت من جديد نحو صالة انتظار الحقائب، بدأ في العودة إلى مكان الحقائب فوجد فجأةً ذلك الفتى والفتاة التوأمين وهُما يخرُجان وكُل منهما يجري نحوه حتى تخطَّياه، نظر إلى خلفه فوجد الفتى والفتاة يحتضنان أصدقاءهما بشدةٍ، يبدو أنهم كانوا في انتظارهما بشغفٍ، دار بينهم جميعاً حديثاً سريعاً عن جدول تحرُّكاتهم التي تنتظرهم، فهِمَ صابر من حديثهم أنهم سيقضون يومهم هذا في المركز التُجاري الكبير المُواجه للبحر، أما الغد فسيكونون في رحلةٍ خلويةٍ بمعسكرٍ صحراوي، وأما اليوم

الثالث فهو مُخصَّصٌ للاحتفال بعيد ميلاد أحدهم، واليوم الرابع واليوم الخامس، واليوم السادس.. كان هُناك جدول طويل ينتظرهُم من الأحداث والمُناسبات، وقد سعد الفتى والفتاة بكُل ذلك، وقالا إن هذا العام سيكون عاماً مُمتعاً بلا شك.

ضرب صابر يده كفاً بكفٍ وهو يهزُّ رأسه يميناً ويساراً مُستنكراً ذلك التحوُّل العجيب، ثُم خطا بعض الخطوات مُتوجهاً نحو مكان أستلام الحقائب، كان العديد من الرُكاب قد وجدوا حقائبهم وخرجوا من الصالة، قال صابر لنفسه: إنني لستُ على عجلةٍ من أمري، فلأنتظر حتى يخفَّ الزحام. عاد صابر إلى الخلف من جديد مُبتعداً عن مكان استلام الحقائب، توجَّه نحو بائع المشروبات واشترى منه زُجاجة مياه ليروي بها عطشه، يا لثمنها الغالي والمُبالغ فيه، هكذا حدَّث نفسه، ثُم تذكَّر نفسه عندما كان يبيع هو الآخر تلك المشروبات إلى باقي الرُكاب بأثمانٍ باهظةٍ، فقال لنفسه إن زُجاجة مياه لن تضُرَّ، فقد حصل على مكسبٍ كبيرٍ في تلك اليلة قبل الصعود إلى الطائرة.

وبينما هو كذلك، إذ بالسيدة النحيفة تخرُج وهي تدفع حقائبها أمامها، أصاب صابر الفضول فتتبعها بنظره، فوجد زوجها ينتظرها حاملاً باقةً كبيرةً من الزهور الجميلة وكذلك أولاده، أي أن ثلاثتهم يحملون الزهور، هرولوا جميعاً نحو السيدة النحيفة واحتضنوها وقبلوها، ضمَّ الزوج السيدة النحيفة إلى صدره وقال: أقسمُ لك إنني لن أُغضبك ثانيةً أبداً، وهذا القسم حقيقيٌ هذه المرة..
نظرت السيدة النحيفة إلى أولادها بحنانٍ ثُم قالت لزوجها: أرجو ذلك.. أتمنَّى ذلك بحقٍ..

ثُم نظرت إلى أولادها وقالت: لقد اشتقتُ إليكم يا أولاد.. لقد اكتشفتُ أنني لا يُمكنُني العيش من دونكم أبداً..

ابتسموا جميعاً وقاموا بالالتصاق بها ثُم خرجوا سوياً من الصالة، كان شكلهم من بعيد كباقةٍ كبيرةٍ من الزهور يتوسطها رجل وامرأة وطفلان.. شعر صابر بأن جميع الرُكاب قد خرجوا أو أن مُعظمهم قد رحل بالفعل، توجَّه بثباتٍ نحو مكان استلام الحقائب، فوجد أن المكان قد أصبح خالياً بينما توجد حقيبتان فقط على الأرض، كانت إحداهُما هي حقيبته. توجَّه صابر نحو حقيبته ليأخذها، فوجد أمامه رجُلاً آخر يتناول الحقيبة الأُخرى في نفس الوقت، نظر صابر إلى وجه ذلك الرجُل وتذكَّر ملامحه، لقد كان ذلك الرجُل هو موظَّف شحن البضائع في المطار، ذلك الرجُل الذي سقط مغشياً عليه قبل السفر.

ابتسم صابر نحو موظف الشحن وقال: ما الذي جعلك تتأخَّر هكذا في استلام حقيبتك؟
فقال موظف الشحن: أنا الذي يجب عليَّ أن أسألك لماذا تأخَّرت أنت؟ إنني أعمل هُنا بالمطار وقد ذهبتُ أولاً لأُسجِّل اسمي في كشوف الحضور إلى العمل، ثُم أتيت لآخُذ حقيبتي..

سحب صابر حقيبته وكذلك فعل موظف الشحن، وسارا سوياً جنباً بجنبٍ فقال صابر: إنني لستُ في عجلةٍ من أمري، سأذهبُ إلى عملي مُتأخراً بعض الشيء، فاللوائح في مكان عملنا تنصُّ على أن التأخير الصباحي عن الحضور إذا تخطَّى نصف ساعة فإنهم سيقومون بخصم ساعتين كاملتين من الراتب، لذلك فإنني أتمتع الآن بتلك الساعتين..

ابتسم موظف الشحن ابتسامةً يائسةً وقال: لا توجد رحمةٌ في أي مكانٍ مع الأسف، إنهم يتعاملون معنا كمصاصي الدماء..

بادله صابر نفس الابتسامة وقال: أجل، فبرغم أننا لم نستطع النوم ليلة أمس، وبرغم الإرهاق الذي حلَّ بنا، فإننا لا نستطيع أن نتهرَّب من العمل لنرتاح، فنحن نحتاج الراتب اليومي ولا نتحمَّل أية خُصوماتٍ ماليةٍ..
أطلق موظف الشحن زفرةً طويلةً تنمُّ عن الضيق الشديد، ثُم تمتم قائلاً: إننا نعيش في كابوسٍ كبير.. كم أتمنى أن أفيق منه وأعود إلى وطني وأولادي سالماً..
فقال صابر: هوِّن عليك يا عزيزي، حاول أن تترفَّق بنفسك فلا تُرهقها نفسياً أكثر من ذلك، يكفينا الإرهاق البدني..
فقال موظف الشحن وهو يتنهَّد: يا ليت الأمر يقتصر على المجهود البدني.. لكن الألم النفسي أصعب بكثير، إن ألم الفُراق والبعاد أكثرُ إيلاماً يا عزيزي..

هزَّ صابر رأسه موافقاً، وكان ما زال يسير بجوار الرجُل حتى وصلا إلى مكتب شحن البضائع، فقال موظف الشحن: سأتوقَّف هُنا فهذا مكان عملي..
فقال صابر مُبتسماً: حسناً يا عزيزي.. أستودعكَ الله..

ابتسم موظف الشحن ابتسامةً خفيفيةً ثُم ناداه أحدهم من خلفه، التفت موظف الشحن نحو مصدر الصوت الذي كان يقول: انتبه إلى الطرد القادم يا عزيزي، إنه أول طردٍ ستقوم بشحنه اليوم..
نظر موظف الشحن نحو العربة التي تقترب وهي تحمل الطرد، ووقف صابر هو الآخر في فضول ليتأمل ما هو نوع ذلك الطرد القادم، اقتربت العربة أكثر

فأكثر حتى توقفت أمام موظف الشحن، كان الطرد هو أحد التوابيت التي تحمل بداخلها أحد الموتى..

***

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك.. دعنا نتفق على أن القراءة درّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة - والتي لم يمنحها للبعض- وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخَبّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات،نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ... لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع ..

لذلك ،،،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقّف بين يديك - بعد الانتهاء منه - فهناك الكثيرون ممن لم يقرأوه، أو لا يمتلكون ثمنه، أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.
مرّر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل !!

كن سبيلا في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجّب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دَارْ دَوِّنْ



سبع ساعات

لم يعرف "صابر" أي شيء عن الرجل وزوجته الهاربين، ولم يكن لديه علم بالزوجة الشابة التي تحتضن أبناءها بشدة، أمّا العروس التي قررت أن تقسو على زوجها فلم تكن تعرف زوجها من قبل.. الحكايات لم تكتمل.. الحكايات لن تنتهي.. رغم أنهم جميعاً وضعوا لها النهاية.. فقد وضعوا لها نهايات كثيرة من قبل.. فكن مستعداً لذلك ..

في هذه الرواية قد تلتقي أشخاصاً كُنتَ تظنُّ أنك تعرفهم حقَّ المعرفة، كُنت تراهم مِن خلف زُجاج صامت بوجوههم الجافَّة الساكنة، لكنك عندما تقترب منهم، ستجد أنـ
عنهم شيئاً بعدُ، ولربّما ستقابل الشخص الوحيد الـ
للحظةِ بمعرفتك به، قد تُقابل نفسكَ للمرَّة الـ
مُستعداً لذلك.

تصميم الغلاف أحمد مراد

